

طه حسين

مَآوِرَاءَ النَهْرِ

الطبعة الرابعة



دار المعارف

مَآوِرَاءَ النَّهْرِ

طه حسين

مَآوِرَاءَ النَهْرِ

الطبعة الرابعة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع

مقدمة الطبعة الأولى

منذ ثلاثين عاماً أصدر الدكتور طه حسين مجلة «الكاتب المصري» أدبية شهرية ، فأعطى العهد على نفسه «ألا تحيد المجلة مهما كانت الظروف عن قانونين : أحدهما الشدة على نفسها وعلى كتابها فيما تنشر وما تنقل من الفصول ، فلن تقدم إلى قرائها إلا هذا الأدب الذى ينفق صاحبه فى إنتاجه الجهد العنيف والوقت الطويل ، وينفق قارئه فى إساغته من الوقت والجهد مثل ما ينفق منتج . . والقانون الثانى هو الحرية الواسعة الكاملة السمحة فيما تنشر وفيما تختار من آثار القدماء والمحدثين ومن آثار الشرقيين والغربيين . . لن تقصر عنايتها على أدب دون أدب ولن تؤثر باهتمامها ثقافة دون ثقافة . . وفى خلال السنوات التى عاشتها مجلة «الكاتب المصري» ، ظلت وفية لهذا العهد : تناولت بالعرض وبالبحث الجاد ألواناً من الأدب الغربى والأجنبى ، من القديم والحديث ، كما أعارت اهتمامها لميادين العلم والاجتماع والسياسة الدولية . وأسهم طه حسين نفسه فى كل هذه الميادين باحثاً عن «الأدب العربى بين أمس وغده» ، ناقداً لما أنشأه عدد من الأدباء العرب المعاصرين أو ترجموه ، ناقلأ كتباً كاملة عن فولتير وأندريه جيد . مهمماً بتغيرهما من أدباء أمريكا وأوروبا ، دارساً الحياة الدولية ، معنياً خاصة

بموقع مصر وعالمنا العربي منها ، فكان - في تناوله لكل ذلك - واضح الإحساس بمسئولية الأديب المعاصر ، ليس فقط عن إثراء الحياة الأدبية والفنية ، بل كذلك عن المشاركة الجادة في تطوير حياة بلاده السياسية والاجتماعية والسعى بها نحو التقدم .

ولقد صدر العدد الأول من الكاتب المصري في أكتوبر سنة ١٩٤٥ ، وكان طه حسين قد ترك في العام السابق منصب المستشار في وزارة المعارف الذى شغله ثلاث سنوات حاول في أثنائها تطبيق السياسة التى اختطها ودعا إليها في كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » وأساس هذه السياسة إتاحة فرص التعليم المتكافئة لكل الناشئة من المصريين والمصريات باعتبار التعليم حقاً طبيعياً لهم لا يتوقف حصولهم عليه على قدرتهم أو عجزهم عن شرائه ، وكانت وزارة المعارف قد قررت بناء على ذلك مجانية التعليم الابتدائى كله ، ثم سقطت الوزارة وترك وزير المعارف أحمد نجيب الهلالي وزارته ، وتركها معه طه حسين .

ونحن نقرأ في العدد الأول من الكاتب المصري رسالة من الوزير السابق يتحدث عن انتكاس سياسة « تكافؤ الفرص » منذ تغيرت الوزارة ، لأن من آل إليهم السلطان على أمور الحكم في البلاد قد استقر في وهمهم أن قاعدة « تكافؤ الفرص » جديرة - إن طبقت تطبيقاً تاماً - أن « تدك نظام المجتمع المصرى » ذكاً . يقول الوزير لطه حسين في هذه الرسالة : لقد طبقنا « تكافؤ الفرصة » كما أمر عمر بن الخطاب حين قال : آس

بين الناس . . ولكننا قد حفظنا شيئاً وغابت عنا أشياء . . غاب عنا أن « التطبيق الصحيح لهذه القاعدة جدير أن يدك نظام المجتمع المصري » على أن الوزير ، الذى كان مقتنعاً بما كان طه حسين مقتنعاً به من أن التطبيق الصحيح لهذه القاعدة إنما يعين على إقامة نظام المجتمع المصري سليماً قوياً على أساس قوى سليم ، يعرف أن هذا المبدأ ، مبدأ تكافؤ الفرص ، قد « خاب ولكنه لم يخب إلا إلى حين » وبالتالي فليس يجوز أن يستسلم الداعون إليه لليأس أو القنوط .

والناظر فى أعداد مجلة الكاتب المصري فى عامها الثانى ، عام ١٩٤٦ ، قد يتوقف كما توقفت عند ثلاثة من أعمال طه حسين الأدبية المنشورة بها ، وقد لا تكون بين هذه الأعمال رابطة مباشرة ظاهرة ، ولكنها تبين بلا شك اهتمام طه حسين بالإصلاح الاجتماعى وإحساسه بمسئولية الأديب المصرى والعربى عن العمل على تحقيق هذا الإصلاح فى بلاده . أول هذه الأعمال سلسلة فصول بدأ نشرها فى مارس ١٩٤٦ بعنوان « المعذبون فى الأرض » وثانيها بحث نشر فى مايو ١٩٤٦ بعنوان « ثورتان » والثالث قصة بدأت فصولها تنشر منذ نوفمبر ١٩٤٦ ، ثم توقف نشر هذه الفصول ، فلم تكتمل القصة ، ولم يتح لما نشر منها أن يقدم للقراء مجتمعاً فى كتاب حتى الآن .

أما العمل الأول - وهو مجموعة « المعذبون فى الأرض » - فقد ساق طه حسين الحديث فيه « إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل ، وإلى الذين

يؤرقهم الخوف من العدل ، إلى الذين يجدون ما لا ينفقون وإلى الذين لا يجدون ما ينفقون » ومع أن هذه الفصول قد نشرت منفردة فإن السلطات المصرية ، التي تهيب دعوة تكافؤ الفرصة وتخيلت أن تطبيقها قد يهدد « بأن يدك أساس المجتمع المصرى » ، منعت نشرها مجتمعة فى كتاب ، وهكذا طبع « المعذبون فى الأرض » لأول مرة فى لبنان .

وتبين استجابة القارئ العربى المعاصر لما يشه هذا الكتاب من دعوة للإصلاح والتغيير الاجتماعى من رسالة لأديب من بغداد هو السيد « عطاء جمدى » الذى كتب رسالة نشرت فى عدد مايو ١٩٤٦ من مجلة الكاتب المصرى يقول فيها موجهاً الحديث إلى طه حسين « هل قصتك تبقى قصة صالح وأمين والحاج على وخديجة وسعيد وحدهم ، أو هى قصتى وقصتك وقصة الشرق كله . . إنها حقيقتنا نحن جميعاً . . أظهرتها بكامل ما فيها من محاسن وقبائح ، ولو عريت من حسن فضحتنا ولو جاءت كلها محاسن لكانت تلفيقاً وخيالاً . . لم نزل نحمل فى طينتنا بقية من خير . . . فلنعمل مخلصين قاسطين فى إنمائها ونشرها والدعوة لها فلعلها تكون اللبنة الأولى التى سيبنى عليها عالم الغد حائط عدله الاجتماعى ، ونقيم عليها دستور الحرية والعدل والمساواة بين الناس » .

أما العمل الثانى من هذه الأعمال الثلاثة فهو بحث نشره طه حسين فى عدد مايو من السنة نفسها ، تناول فيه بالبحث ثورتين ، « كانت إحداهما فى إيطاليا فى أثناء القرن الأول قبل المسيح ، وكانت ثانيتهما فى العراق فى

أثناء القرن الثالث للهجرة ، فأما أولاهما: فهي ثورة الرقيق في إيطاليا تلك التي قادها سبرتاكوس ، وأما ثانيتهما: فهي ثورة الزنج في البصرة تلك التي قادها عبد الله بن محمد المعروف بصاحب الزنج .

ولهذا البحث الذي نشر بعنوان « ثورتان » قيمته التاريخية والأدبية بغير شك ، ولكنه يهملنا هنا لقيمه الاجتماعية ، فإن الكاتب - في مطالبته بالإصلاح الاجتماعي - يرسم الطريق إلى هذا الإصلاح على أساس من قيمنا ومثلنا العليا التي أهملناها فهو يقول : « إن كثيراً منا يفكرون في العدل الاجتماعي ، ويحسنون حاجة الجماعات إليه ، ولكنهم ينظرون إلى ما وراء البحر الأبيض المتوسط ليلتمسوا في أوروبا مصادر هذا الشعور بالحاجة إلى العدل الاجتماعي ، ومظاهر المطالبة به والسعى إليه ، ينظرون إلى الديمقراطية المعتدلة ، وينظرون إلى الاشتراكية الدولية وإلى الاشتراكية الوطنية ، وقد ينظرون إلى الشيوعية في كثير من التردد والاستحياء ، ولكنهم لا ينظرون أو لا يكادون ينظرون إلى فكرة المطالبة بالعدل الاجتماعي كما وجدها المسلمون قبل أن ينتصف القرن الأول للهجرة ، وقليل منهم بل أقل من القليل أولئك الذين يحاولون أن يتابعوا نشأة هذه الفكرة وتطورها في البيئات الإسلامية الثائرة ، وما أنتجت من ألوان الأدب ، ومع ذلك فقد كان للمطالبة بتحقيق العدل الاجتماعي أبطال من حقهم أن يدرسوا ومن حقهم أن يلهموا الكتاب والشعراء . . . »

وينبه المؤلف أدباءنا إلى « أن لنا في المطالبة بالعدل الاجتماعي تاريخاً

حافلا عظيم الغناء يستحق أن نرجع إليه . . فلعلنا إن فعلنا عرفنا أن المتطرفين من قدمائنا قد سبقوا إلى طائفة من الأصول في تنظيم الحياة الاجتماعية لم تستكشف في أوربا إلا في أثناء القرن التاسع عشر أو في عصر الثورة الفرنسية الكبرى . . . فنحن إذن لسنا عيالا ولا يمكن أن نكون عيالا على المطالبين بتحقيق العدل والتأثرين على الظلم الاجتماعي من الأوربيين ، وإنما نحن أبعد منهم عهداً ، وأشد منهم ممارسة لهذا النحو من محاولة الإصلاح . . «

أما الثالث من هذه الأعمال الثلاثة فهي قصة « ما وراء النهر » التي بدأ طه حسين ينشر فصولها في نوفمبر ١٩٤٦ ، فهي أيضاً صرخة ضد الظلم الاجتماعي للإصلاح ودعوة الإصلاح ، وهي كذلك تستثير الغضب ولكنها تستبقي الأمل تحارب به اليأس والقنوط ، الزمان الذي تقع فيه أحداثها هو زمن إملاتها ، يصرح الكاتب بذلك فهو يقول : « قصتنا لم تحدث في العصر القديم وإنما نزعم أنها حدثت في هذا العصر الذي نعيش فيه » والمكان الذي تدور فيه أحداث القصة هو مصر لا يخدعنا الكاتب عن ذلك بإلحاحه في إنكاره والادعاء بأن أحداثها لم تقع وما كان يمكن أن تقع في أرض مصر ، والكاتب لا يقصد إلى غير التهكم والسخرية عندما يقول : « ليست هذه القصة مصرية . . لأن مكانها لا يوجد في أرض مصر ، ولأن أشخاصها لا يعيشون في جو مصر ، ولأن أحداثها لا تلائم طبائع المصريين . . . فأهل مصر كلهم أخيار أبرار . . . فلست ترى بينهم قوياً يستذل ضعيفاً ولا غنياً يستذل فقيراً ولا ناعماً يستطيل على بائس

ولا سعيداً يستخف بشقى . . . » والمؤلف لا يخدع أحداً ، وهو فى الواقع لا يريد أن يخدع أحداً ، عندما يقول : إن هذه القصة « فيها شئ من الظلم والجور والاستطالة والاستعلاء ، والاستئثار بالذات . . . والإقدام على الآثام . . . فلا يمكن أن تحدث هذه القصة فى مصر » .

وأهم أحداث القصة تدور فى قصر ضخم قائم على ربوة شديدة الارتفاع والاتساع ، وفى دار من الطين الغليظ منخفضة « فى قرية قبيحة أقصى غايات القبح تقوم على السهل المنبسط مما يلي الربوة العالية » .

وأشخاص القصة يهمننا منهم ثلاثة من سكان القصر والمختلفين إليه هم رعوف سيد القصر وولده الفتى نعيم وشاعره الشيخ ، كما يهمننا من سكان القرية شخص محمود الإسكافى وابنته خديجة وولده أحمد ، وهما من الفلاحين ، والمؤلف يصف هؤلاء الأشخاص وصفاً دقيقاً سيقف القارئ عنده يتأمل مقدرة طه حسين على الوصف والإبداع فيه .

ولسنا ننوى أن نعرض هنا لما كان يقوم بين سكان الربوة وسكان القرية من علاقات أساسها أن أهل الربوة سادة وأهل القرية خدام لهم ، كما أننا لا ننوى أن نعرض هنا للحوادث التى تدور فى هذه القصة والتى يقول الكاتب إنه يكاد يعتقد « أن هذا المكان نفسه هو الذى أنشأها وهو الذى ابتكر أحداثها ، ودفع أشخاصها إلى إجراء هذه الأحداث . . . ولو قد عاش أشخاص هذه القصة فى دار متواضعة أو قصر يقوم على السهل لما أجروا ما أجروا من الأحداث ، ولما أصابهم ما أصابهم من الخطوب » فإن القارئ

سيقراً في صفحات هذه القصة التي لم تتم ما وقع فيها من هذه الأحداث ، على أنه يحسن أن ننبه القارئ إلى أن الكاتب - الذي أعطى على نفسه العهد ألا يقدم في مجتمعه إلا الأدب « الذي ينفق كاتبه فيه الجهد العنيف والوقت الطويل ، وينفق قارئه فيه من الجهد والوقت مثلما ينفق كاتبه » - هذا الكاتب ينذر قراء قصة « ما وراء النهر » فيقول إنها « لا تحتل القراءة السلبية ، وإنما هي تريد بل لا تقوم إلا على المشاركة الإيجابية بين الكاتب حين يرسم الخطوط وبين القارئ حين يتم الرسم ويملاً ما بين الخطوط من فراغ لعله ترك عن إرادة وعمد » ..

وسيرى القارئ أن الكاتب غاضب على سكان الربوة لأنهم « قساة القلوب غلاظ الأكباد يؤثرون أنفسهم بكل شيء ولا ينزلون لغيرهم عن شيء » ، وسيرى أيضاً أن الكاتب غاضب على سكان القرية « لأنهم أحرار كالعبيد وعبيد كالأحرار ، ليسوا راضين ولا ساخطين ، لأنهم لا يعرفون الرضا ولا السخط » ولكن القارئ سيحس قبل ذلك وبعده أن الكاتب لا يرضى منه أن يكون قارئاً سلبياً ، وإنما يريد أن يشركه فيما يحس به من غضب ، وأن يشركه في الوقت نفسه فيما يحس به من الأمل في الإصلاح ، وأن يدفعه ويدفع القراء جميعاً للعمل لتحقيق هذا الإصلاح الاجتماعي . يريد الكاتب من أهل القرية ألا يرضوا بما هم فيه ويريد من قرائه أن يشاركوه ويشاركهم في هذا الشعور ، والكاتب لا يريد ولا ينتظر الإصلاح نتيجة مطالبة أهل القرية وحدهم به ، فإنه أمله معلق بأهل القصر أيضاً فهذا

« نعيم » ابن صاحب القصر ووريثه يسأل صديقه الشاعر « حدثني عما تقدمون من الخير والبر إلى أهل هذه القرية حين تسخرونهم في غير رفق ولا لين وفي غير محبة ولا مودة وفي غير إنصاف ولا عدل لمنافعكم وحين تستأثرون من دونهم بشمرة ما يبذلون من جهد ويحتملون من عناء . . . » فهو إذن غير راض عن هذا النظام وهو المنتفع به ، وهو قد اقرف إثماً كبيراً ولكنه مدرك لكل جريمته صادق النية في إصلاح ما أفسده ، فقد قرر الزواج من فتاة الإسكافي التي أغواها على علمه بما يثيره مثل هذا الزواج من مشاكل وصعوبات ، وإذا كان قد حيل بينه وبين تنفيذ ما انتوى فذلك لفاجعة نزلت لم يكن له ولا لسكان القصر يد فيها ، وإنما جناها أحمد شقيق الفتاة وهو من سكان القرية .

الكاتب يعرض علينا في قصته الحياة وهي مزاج من الخير والشر ومن النعيم والبؤس ومن الجمال والقبح ومن السعادة والشقاء ، لا يفقد الناس فيها الأمل ، الذي يضيء ما يتكاثف فيها من ظلام ، فالإصلاح ممكن بل محقق إن صدق العزم وتم العمل الجاد لتحقيقه .

أملى طه حسين في فبراير ١٩٤٧ آخر ما نشر بين فصول هذه القصة ، ثم تركها فلم تم . لقد قال لنا إنه كان يرسم خطوط القصة كما قال « وترك القارئ يتم الرسم ويملاً ما بين الخطوط من فراغ لعله ترك عن إرادة وعمد » فهل ترك للقارئ أيضاً أن يختتم القصة كما يريد ؟ هل ترك القصة بغير نهاية عن إرادة وعمد ؟

الأرجح أن طه حسين قد شغل عن هذه القصة لسبب من الأسباب ، شغله ما كان يهيمه من هموم الأدب والتعليم . كما شغله عمله وزيراً للمعارف إذ تولى هذه الوزارة في عام ١٩٥٠ فعاد إلى سياسة تكافؤ الفرصة يسير على هداها فأعلن مجانية التعليم الثانوى كله ، وإلى المطالبة بالعدل الاجتماعى أساساً سليماً للمجتمع الصحيح السليم ، ولكن الوزارة سقطت في أول عام ١٩٥٢ ، وعادت السلطة إلى أيدي من كانوا يخشون أن يؤدي تكافؤ الفرصة في التعليم وغيره إلى دك نظام المجتمع المصرى ، وبقيت في أيديهم شهوراً قليلة قامت بعدها ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

كتب طه حسين من إيطاليا إلى توفيق الحكيم ، بعد قيام الثورة بأيام ، في الثالث من أغسطس ١٩٥٢ يقول « يخيل إلى أن للأدب حقه في هذه الثورة الرائعة ، هيأ لها قبل أن تكون وسيصورها بعد أن كانت » وقد أرادت الثورة أن تحقق العدل الاجتماعى للمصريين ، وأن تكفل تكافؤ الفرص لهم جميعاً ، فنصت على هذا المبدأ في دستور البلاد ، وشرعت من القوانين ما يصلح الوضع الذى كان الفتى نعيم نفسه ينعاه ويحذر منه قبل سنوات ، ولم تلجأ مصر لإتمام هذه الإصلاحات إلى استيراد وتطبيق مذهب من المذاهب الأجنبية التى ذكر طه حسين في حديثه عن ثورة الزنج في مقال عام ١٩٤٦ - أننا غنيون عنها بما لنا من سابقة في ميدان المطالبة بالعدل الاجتماعى وممارسة للعمل على تحقيقه .

ومن الواضح أننا قد ركزنا اهتمامنا في هذه المقدمة على المضمون

الاجتماعى لهذه القصة التى لم تتم ، ومن الواضح أيضاً أن هناك موضوعات أخرى جديرة باهتمام من يقرأ هذه القصة . فهناك الأحكام الأدبية والنقدية التى يتحدث عنها المؤلف فى أماكن متفرقة من القصة ، وهناك رموز لم يلق عليها الضوء لأن القصة لم تكتمل ، فبقيت معماة ، تحتل الكثير من التفسيرات أو لا تجد أى تفسير ، ما صلة الناس بمنبع النهر وبمصبه ؟ ولماذا تمتلئ نفوسهم هولاً ورعباً إذا فكروا فى عبور شاطئه الشرقى إلى الشاطئ الغربى ؟ وما سر الجبال الشاهقة التى ترتفع فى السماء فيما وراء النهر ؟ وما بال الذين يعبرون لا يعودون ؟ وما سر النار التى اشتعلت فى قمة من قمم الجبال عندما بدأت أحداث هذه القصة فى الوقوع ، وما الصلة بين هذا اللهب وبين مصرع الفتاة ، والصلة بين الفتاة نفسها وقد صرعت وبين ما وراء النهر ؟ ولماذا تراود رءوف صاحب القصر فكرة العبور إلى ضفته الأخرى ؟ بل ما هى الخطوب التى أنذر الكاتب بأنها ستقع لأهل القصر ، فإن آخر عهد القصة بصاحب القصر وهو يحتسى الشراب مع شاعره ويدبر السفر لولده ليقضى عاماً أو أكثر من عام سائحاً فى أوربا ؟

هذه كلها أسئلة لم يعد من الممكن أن يجيب عنها الكاتب فلعل من القراء من يحاول الإجابة عنها أو عن بعضها ، ولعل من القراء من يقنع بما فى هذه القصة التى لم تكتمل من مضمون يطيل النظر فيه ، ومن أسلوب يتعمق المتعة به .

وبعد فقد رأت أسرة طه حسين أن تنشر هذه القصة كما تركها المؤلف

فى يوم الذكرى الثانية لوفاته ، ورحب الأستاذ الدكتور سيد أبو النجا
المشرف على دار المعارف بهذا النشر ، فلعل هذا الكتاب أن يلتقى من
رضا القراء عنه ومن استفادتهم به ما يحقق الغرض من نشره فى هذه المناسبة .

محمد حسن الزيات

الناصرية فى أكتوبر ١٩٧٥

مقدمة الطبعة الثانية

بعد صدور الطبعة الأولى من قصة « ما وراء النهر » وجدتُ بين أوراق الأستاذ العميد صفحات استأنف فيها الإملاء من حيث انقطع عند آخر ما نشر من هذه القصة كما ظهرت في طبعها الأولى .

وهذه الصفحات الجديدة ، التي لم يكن وجودها معروفاً عند صدور الطبعة الأولى في أكتوبر ١٩٧٥ ، والتي نشرت لأول مرة في العدد الأول من مجلة أكتوبر بعد عام من صدور تلك الطبعة .

تضاف الآن إلى القصة في هذه الطبعة الثانية ، فتلقى الضوء على غوامض فيها كنت قد أشرت إليها في مقدمة الطبعة الأولى ، كما تضيف وصفاً مطولاً ، وتحليلاً مستقصياً لنفس أحد أبطال القصة وهو الشاعر نديم صاحب القصر .

وهكذا تظهر هذه الطبعة الثانية الآن ، وفيها من إملاء الأستاذ العميد ما لم ينشر من قبل ، أثر جديد يضاف إلى تراث طه حسين الخالد الحي .

محمد حسن الزيات

ما وراء النهر

١

لست أدري أين وقعت أحداث هذه القصة ، ولكنى أقطع بأنها لم تقع في مدينة القاهرة ، فقد تتبعت شاطئ النيل كله في هذه المدينة ، فلم أجد ربوة شديدة الارتفاع والاتساع ، يقوم عليها قصر فخم ضخم شاهق في السماء ، ويتكاثف فيها شجر باسق ملتف يُظل ضروباً من النجم لا تعد ، وفنوناً من الزهر لا تحصى ، وهذه الربوة المرتفعة الواسعة تنحدر في يسر إلى النهر ، كأنما تسعى للقاءه ، أو كأنما تيسر للشجر والزهر السعي للقاءه . . .

لم أجد على شاطئ النيل في القاهرة هذه الربوة ولا شيئاً يشبهها ؛ ووجود هذه الربوة شرط أساسي لوقوع الأحداث التي تعرضها هذه القصة ، فما أظنك تخالفني في أن ما يمس الإنسان من الأحداث وما يصور هذه الأحداث من قصص لا يمكن أن يتم إلا إذا كان له مكان معروف بحدوده وأوصافه . وقد وقعت أحداث هذه القصة في مكان ، ما في ذلك شك ، بل وقعت في هذا المكان الذي وصفته وصفاً موجزاً . وأكاد أعتقد أن هذا

المكان نفسه هو الذى أنشأها ، وهو الذى ابتكر أحداثها ودفع أشخاصها إلى إجراء هذه الأحداث .

وقد علمنا النقاد منذ عهد بعيد أن هناك صلة متينة دقيقة بين أقوال الناس وأعمالهم ، وبين البيئة التى يعيشون فيها ويتأثرون بدقائقها فى حياتهم اليومية ، ولو قد عاش أشخاص هذه القصة فى دار متواضعة أو فى قصر يقوم على الأرض المنبسطة السهلة - لا على هذه الربوة المرتفعة التى تمتاز مما حولها من الأرض ، وترفع قصرها فوق ما حولها من القصور والدور ، وتنحدر بشجرها وزهرها فى سداجة ويسر إلى النهر - أقول لو قد عاش أشخاص هذه القصة فى دار متواضعة أو قصر يقوم على السهل لما أجروا ما أجروا من الأحداث ، ولما أصابهم ما أصابهم من الخطوب . فغرفات القصر وحجراته ، وأفنية القصر وأبهاؤه ، وهذه الدهاليز الكثيرة الملتوية ، وهذه النجوم المتقابلة المتدابرة ، وهذا الزهر المنسق المنمق ، كل أولئك قد فرض على أهل القصر لوناً أو ألواناً من الحياة لم يكونوا يستطيعون إلا أن يخضعوا له ويسلكوا فى سيرتهم ما يلائمه ، وكل أولئك قد أغرى هذا الشخص أو ذاك من أشخاص القصة بهذا العمل أو ذاك من أعماله ، وبهذا القول أو ذاك من أقواله ، بحيث لم يكن بد من أن تحدث هذه الأحداث فى هذا المكان المقسوم لها دون غيره من الأمكنة ، وإلا لبطلت قواعد الفن ، ولفسد التاريخ الأدبى ، ولذهب الأدباء بإنتاجهم الأدبى كل مذهب وسلكوا به كل سبيل . لا يخضعون لأصل من الأصول ،

ولا يتقيدون بقانون من القوانين التي وضعها أرسطاطاليس وأسلافه وأخلافه ولم يفرغوا من وضعها إلى الآن .

واذن فلا بد لهذه القصة من ربة عظيمة الارتفاع والاتساع ، ومن قصر شاهق ، وشجر باسق ، وزهر رائق ، ونجم شائق ، ونهر دافق يجري من تحت هذا كله في أناة حيناً وفي عنف حيناً آخر . فإذا فقد شيء من هذا ضاعت القصة وما أظنك ترغب في أن تبضيع ؛ فأنت محتاج إليها لتنفق الوقت في القراءة ، وأنا محتاج إليها لأنفق الوقت في الإملاء ، والمجلة محتاجة إليها لتملاً عدداً من صفحاتها قليلاً أو كثيراً . كل شيء يضطرني إلى أن أملئ ، وكل شيء يضطر المجلة إلى أن تنشر ، وكل شيء يضطرك إلى أن تقرأ ، وكل أولئك يفرض علينا جميعاً أن نقبل هذه الربة وما فيها وما عليها لنمضي فيما يسر له كل منا من الكتابة والنشر والقراءة . فلتكن هذه الربة ما دام لا بد لها ولنا من أن تكون . ولكنها لا تستطيع أن توجد في القاهرة لأن شاطئ القاهرة منبسط مستو ليس فيه نجاد ولا وهاد . فلو زعمنا أن الربة قائمة في هذا المكان أو ذاك من المدينة لاستطاع من شاء من القراء أن يواجهنا بالإنكار ويخاصمنا بالحقائق الواقعة ، ويبضيع علينا القصة وما بذلنا في كتابتها ونشرها وقراءتها من الجهود .

وأكاد أعتقد أن هذه الربة لا توجد على شاطئ النيل في مصر كلها . فلست أزعم أني قد تتبعته الشاطئ المصري كله على النيل ، ولكني لم أسمع قط عن ربة كهذه الربة ، ولا عن قصر كهذا القصر . ولو قد

وجدت هذه الربوة وقصرها الشاهق وجنتها الرائعة لكثير عنها الحديث في كتب الخطط أولاً ، وفي الصحف والمجلات ثانياً ، وعلى ألسنة الناس بعد ذلك ؛ لأن جو مصر من الصفاء والنقاء بحيث لا يخفى شيء فيها على أحد من الناس إلا أن تتكاثف عليه الرمال كما تتكاثف على الآثار . وقصتنا لم تحدث في العصر القديم ، وإنما نزعم أنها حدثت في هذا العصر الذى نعيش فيه ، عاصرتنا أو سبقتنا إلى الوجود بوقت قصير جداً .

ومن الجائز أن تكون هذه الربوة مسحورة ، توجد لتفى ، وتفى لتوجد ، تظهر اليوم لتستخفى غداً ، وتستخفى غداً لتظهر بعد غد ؛ شأنها فى ذلك شأن كثير من المدن والقرى التى يتحدث عنها القصاص ويراهم الرحالون فى قلب الصحراء أو فى أطرافها . ولكنى أستبعد ذلك ، لا لأنه فى نفسه بعيد أو مخالف لقوانين الطبيعة ؛ فقوانين الطبيعة لا تستطيع أن تثبت أمام قوانين الفن ، وقوانين الفن تبيح أن توجد الربوة وتفى ، وأن تظهر وتخفى ، بل هى تبيح أن توجد هذه الربوة فى مدينة القاهرة نفسها إلى أن تقع أحداث القصة . ثم تمضى بما عليها ومن عليها كأن لم تغن بالأمس . وما دام الزمان يمضى فليس بأس من أن يمضى المكان كما يمضى الزمان . وإذا استبعدت أن تكون هذه الربوة فى مدينة القاهرة ، فمصدر ذلك أن القراء يتفاوتون فى الثقافة ويختلف علمهم بأصول الفن . وما أحب أن ينجم لى منهم قارئ أو قراء يزعمون لى أن لا وجود لهذه الربوة فى القاهرة

ويجادلون فيما لا معنى للجidal فيه .

وأنا مع ذلك أستبعد أن تكون هذه الربوة مصرية لعلة أخرى لا تتصل بطبيعة الأرض ولا بتقويم البلدان ، وإنما هي أعظم خطراً من طبيعة الأرض ومن تقويم البلدان ، لأنها تتصل بالأخلاق ، فأهل مصر كلهم أخيار أبرار . لا يحبون شيئاً كما يحبون العدل ، ولا يبغضون شيئاً كما يبغضون الجور ، ولا يؤثرون شيئاً كما يؤثرون ذكاء القلب وصفاء النفس وطهارة الضمير ، ولا يرفعون أنفسهم عن شيء كما يرفعونها عن مقارفة الإثم ومصاحبة الفساد : ينأون عن السيئات أشد ما يكون النأي ، ويتجافون عن الموبقات أشد ما يكون التجافي ، ويتزهون أنفسهم عن الخطيئة أشد التزهيه ؛ فلست ترى بينهم قوياً يستذل ضعيفاً ، ولا غنياً يستذل فقيراً ، ولا ناعماً يستطيل على بائس ، ولا سعيداً يستخف بشقي . ولست ترى بينهم متعجلاً للمنفعة ، ولا مؤجلاً لعمل من أعمال البر ، ولا مضحياً بمصلحة الكافة في سبيل المصلحة الخاصة ، ولا مؤثراً لنفسه بالخير من دون مواطنيه . ولست ترى بينهم من يستحب الحياة الدنيا على الآخرة ، ويؤثر العاجلة على الآجلة ، ويتهالك على اللذات لا يصطنع في سبيلها أناة ولا وقاراً ، ويقبل على الآثام لا يرى في الإقبال عليها حرجاً ولا جناحاً ؛ لست ترى من بينهم أحداً يهتم بشيء من ذلك أو يفكر فيه أو يصد نفسه عنه متكلفاً من الجهد قليلاً أو كثيراً ، وإنما هم قوم فطروا على البر والإحسان ، وركبت في طبائعهم خصال التعاون والتناصف والاستباق إلى الخيرات ، واثلت أذواقهم من

حب الجمال المادى والمعنوى ؛ فهم يكرهون أشد الكره القبح الذى تتأذى به العيون ، وهم ينفرون أشد النفور من القبح الذى تشمئز منه النفوس ، حياتهم الأولى فى هذه الدنيا مشاكلة كل المشاكلة لحياة الصالحين المقربين فى الجنة التى وعد الله عباده المتقين . وفى هذه القصة ، كما سترى ، شىء من ظلم وجور ، وشىء من استطالة واستعلاء ، وشىء من الاستئثار باللذات فى غير تحرج ، والإقدام على الآثام فى غير تحفظ ، والاستهتار بما يأبى الرجل الكريم أن يستهتر به أو يظهر الناس على ميله إليه ورغبته فيه . فلا يمكن إذن أن تحدث هذه القصة فى مصر ؛ لأن أحداثها منافرة أشد المنافرة للمعروف المألوف من أخلاق المصريين فى عصورهم المختلفة وفى عصرهم هذا الحديث خاصة ؛ لأن الأخيار يمشون فى الخير كلما تقدم الزمان ، كما أن الأشرار يتخففون من الشر كلما ارتقت الحضارة . وأكبر الظن أن حياة المصريين قد بلغت من الصفاء والنقاء على تقدم الزمن طوراً ليس بينه وبين حياة الملائكة فى السماء إلا آماذ قصار . وإذا كان الجيل المعاصر منهم يسعد بهذه الحياة الراضية الرخية النقية أكثر مما سعدت الأجيال الماضية ، فإنه على سعادته العظيمة شقى بالقياس إلى ما ستظفر به الأجيال المقبلة من هذه السعادة التى لا يمكن أن توصف بلغة الناس لأنها لم تقدر للناس فى حياتهم الدنيا .

ليست هذه القصة مصرية إذن ؛ لأن مكانها لا يوجد فى أرض مصر ، ولأن أشخاصها لا يعيشون فى جو مصر ، ولأن أحداثها لا تلائم طبائع

المصريين . وإذن فقد تسأل نفسك كما أسأل نفسي : أين وقعت أحداث هذه القصة ؟ والحق أن الجواب عن هذا السؤال ليس شاقاً ولا عسيراً ؛ فما أكثر البلاد التي ترتفع فيها الربى على ضفاف الأنهار ، وترتفع فيها القصور الشاهقة المترفة على قمم الربى ! وإذا لم تكذبني الذاكرة فإن شاعراً من أصحاب الموشحات قد صور لنا ربي كثيرة في إسبانيا ، كان يطلب إلى السحب أن تجل تيجانها بالحلى ، وأن تجعل منعطفات الجداول لها أساور من الجين ، وإن شئت فقل أساور يختلف معدنها باختلاف ما يلقي عليها من الضوء وما يعكس عليها من الألوان ؛ فهي من فضة حين يمتع النهار ، وهي من ذهب حين يترقرق على صفحاتها ضوء الأصيل . والمهم أن هذا الشاعر الموشح الموفق قد دلنا على مكان هذه الربوة الرائعة التي يقوم عليها هذا القصر المنيف . فلنقل إذن إنها في إسبانيا . وأنت تعرف أن إسبانيا هي البلد الذي يبنى الخيال فيه ما يشاء من القصور ومن القصور المطاوعة التي ترتفع في السماء وتتسع في الفضاء ما شئت لها الارتفاع والاتساع ، والتي تنخفض وتنقبض حين تريد لها الانخفاض والانقباض ، والتي تندك وتنهار وتصبح أطلالا بالية حين تريد أن تقف عليها كما كان يقف الشعراء القدماء على أطلالهم ، وأن تنشئ عليها هذا الشعر الذي أنشده النابغة على طلل القديم :

يا دار مية بالعلياء فالسَّند أقوت وطال عليها سالف الأمد .
وقفتُ فيها أصيلاً لا أسائلها أعيت جواباً وما بالرَّبع من أحد .

ربوتنا إذن فى إسبانيا ، قد أشرفت على نهر من أنهارها ، وانحدرت إليه كما قلت فى سهولة ويسر ، واتخذت لنفسها من الشجر والزهر تاجاً رائعاً بارع الجمال ، واتخذت لتاجها هذا الرائع البارع من ذلك القصر الشامخ الباذخ الأنيق درة نادرة المثال منقطعة النظير تستطيع أن تلتمس لها اسماً بين هذه الدور الكثيرة التى يأتلف منها كتاب العقد الفريد لذلك الكاتب الشاعر الأندلسى العظيم .

ولكنى لم أصف الربوة حق وصفها ولم أصورها كما ينبغى لها أن تصور . فأنت لا تحسن الوصف والتصوير لشيء من الأشياء . إلا إذا وصلت به ملحقاته التى تكمله وتعطيه صورته النهائية ، إن أتيح لشيء من الأشياء فى هذه الحياة أن يظفر بصورته النهائية فى يوم من الأيام . وهذه الربوة ملحق لا يمكن إهماله لأن إهماله يخل بنظام القصة إخلالاً خطيراً . فالجمال لا يستقيم إلا إذا جاوره القبح ، والنعم لا يكمل إلا إذا جاوره الجحيم . وما ينبغى أن نحتج على بنعيم الجنة وجمالها ، فنعم الجنة وجمالها لا يستقيمان إلا إذا كان بإزائهما قبح جهنم وما يصلى المخاطئون فيها من نار الجحيم .

لا بد إذن من أن أتم تصوير الربوة بشئ من الحديث عن هذا الملحق الذى لا يستقيم أمرها بدونه . وهذا الملحق قرية تقوم على السهل المنبسط مما يلي الربوة ، وهى بعيدة الأرجاء ، مترامية الأطراف قبيحة المنظر إلى أقصى غايات القبح ، تقوم فيها دور منخفضة لا تكاد ترتفع فى الجو إلا قليلا ، لم تتخذ من الحجر ولا من الآجر ولا من اللبن ، وإنما اتخذت من الطين قد صنع صناعة غليظة خشنة وأسند بعضه إلى بعض وأقيم بعضه على بعض ، فاثقلت منه بيوت كانت تريد أن تكون جحوراً تتخذ فى باطن الأرض ، ولكن أهلها لم يجدوا من القوة ولا من الجهد ولا من المال ما يمكنهم من احتفار الجحور فى الأرض ، فأثروا أيسر الأمور واتخذوا دورهم من هذا الطين المهمل الغليظ .

وقد قامت هذه القرية البائسة ، فى هذا السهل المنبسط ، على شاطئ النهر الجميل ، وإلى جانب الربوة الرائعة ، ليعلم الناس وليعلم النهر أيضاً ، وليشهد النهار المشرق والليل المظلم ، وليسجل التاريخ الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . أن الحياة مزاج من الخير والشر ، ومن النعيم والبؤس ، ومن الجمال والقبح ، ومن السعادة والشقاء ، وأن تمايز الأشياء وتفاوت الأحياء أصل من أصول الوجود . فلولا الفقر ما كان الغنى ، ولولا البؤس ما كان النعيم ، ولولا الانخفاض ما كان الارتفاع ، ولولا الضيق ما كانت السعة .

ولست فى حاجة إلى أن أفصل ما تمتاز به الربوة من جمال ، وما

تمتاز به القرية من قبح . فقد لا يكون من الخير ولا من الذوق ولا من حسن الرعاية للقراء أن أستاثر وحدى بهذا الوصف ؛ فأنا لم أستاثر بالخيال من دون القراء ، بل أنا قد أكون أقل الناس حظا من الخيال وقدرة على الوصف وبراعة في الأداء . ولم يخلق الله أديبا يستطيع أن يستاثر وحده بوصف ما يعرض على قرائه من الأشياء والأحياء ؛ فهذا الوصف شركة دائما بين الأديب المنتج والقارئ المستهلك . وليس من المحقق أن الأشياء التي يعرضها الأدباء تقع في نفوس القراء كما يعرضونها عليهم ، وإنما الشيء الذي ليس فيه شك أن القراء يشاركون في الخلق والإنشاء ، ويسبقون من ذات أنفسهم على ما يجلوهم الكتاب من صور ألوانا لعل الكتاب أنفسهم لم يروها ، ولعلها لم تخطر لهم على بال . فهذه الربوة التي تحدثت عنها ، وهذه القرية التي أشرت إليها ، تقعان من نفوس القراء على اختلافهم مواقع مختلفة متباينة ، لعلها لا تلتقي ولا تتشابه إلا في القليل . فالإنتاج الأدبي إذن شركة بين الأديب وقارئه ، وليس الأديب في حقيقة الأمر إلا رائداً يمهّد الطريق . وما ينبغي للقراء إذن أن ينخدعوا عن أنفسهم ، ولا أن يخلعوا على الأدباء هذه الخصال الرائعة التي تثير فيهم الغرور وتغريهم بالكبرياء . والذي أريد أن أصل إليه هو أنني أعتمد على القراء في أن يعمل كل منهم خياله ما وجد إلى إعماله سبيلا ، ليصور لنفسه هذه الربوة جميلة كأروع ما يكون الجمال ، وهذه القرية قبيحة كأبشع ما يكون القبح ، وألا تكون قراءتهم سلبية غير ذات غناء . فهذه القصة لا تحتمل

القراءة السلبية ، وإنما هي تريد ، بل هي لا تقوم إلا على المشاركة الإيجابية بين الكاتب حين يرسم الخطوط وبين القارئ حين يتم الرسم ويعمل ما بين الخطوط من فراغ لعله ترك عن إرادة وعمد .

ولعل القارئ يظن ، وهو معذور إن ظن ، أن هذا الحديث قد طال وأسرف في الطول قبل أن يصل إلى أول هذه القصة ، فكتابتنا قد عودوا القراء أن يهيشوا لهم الأدب كما يهيا لهم الطعام ؛ فليس على القراء إلا أن يقرءوا ويسينغوا ، كما أنهم أو كما أن بعضهم ليس عليه إلا أن يجلس إلى مائدة الطعام في مواعيد موقوتة ليمضغ ويسينغ . . .

أما أنا فلا أحب هذا اللون من الطهي الأدبي ؛ لأنني أكبر نفسي وأكره أن أكون خادماً للقراء من جهة ، ولأنني أكبر القراء وأكره أن تكون آذانهم أفواهاً وعقولهم بطوناً يلقي إليها الكلام فيسمعون ثم يسينغون ، لا أحب شيئاً من هذا ، وإنما أحب أن أنشئ بيني وبين القراء نوعاً من الزمالة ، بحيث نبدأ القصة معاً ، ونمضي فيها معاً ، وننتهي منها معاً ، نتفق أحياناً ونختلف أحياناً أخرى ، ويشجر بيتنا الخصام من حين إلى حين .

قد كدنا نصل إلى أول القصة ، وإن كنا لم نخط فيها خطوات واسعة فيما أعتقد ، فليست القصة حكاية للأحداث وسرداً للوقائع كما استقر على ذلك عرف النقاد والكتاب ، وإنما القصة فقه لحياة الناس وما يحيط بها من الظروف ، وما يتسابع فيها من الأحداث . وإذا كان الأمر كذلك - وهو عندي كذلك - فنحن قد بدأنا القصة منذ الكلمة الأولى من هذا الحديث . وعلى كل حال فليس بيننا وبين الأخذ في عرض الحوادث إلا شئ واحد ، وهو أن نبين الصلة بين القرية الملقاة على السهل والربوة المشرقة على النهر . وهذه الصلة قرية كل القرب ، يسيرة كل اليسر ، ليست بعيدة ولا عسيرة كالصلة بين القصر وقريته في قصة الكاتب المعروف كفكاKafka ، لأنني لا أصطنع في حديثي رمزاً ولا إيماء ، وإنما أصطنع الصراحة التي تؤثر الجلاء وتكره الغموض . والذين قرءوا قصة « القصر » لهذا الكاتب ذى الصوت البعيد ، يعرفون أن قصره إنما هو رمز للعالم العلوي ، وأن قريته إنما هي رمز للعالم السفلي ، ومن هنا تعقدت الصلة بين هذين العالمين . أما ربوتي أنا فهي ربوة من هذه الربى التي يراها الناس في كل يوم ويقرءون عنها في كل كتاب من كتب الأدب ، وليس

أدل على ذلك من أنى قد استعرتها من ذلك الشاعر الأندلسى القديم .
وأما قصرى أنا فهو قصر من هذه القصور التى يشهدها الناس حين يصبحون
وحين يمسون ، قد بنى من المادة التى تبنى منها القصور ، وأثت بالأثاث
الذى تزدهى به القصور ، وأترف أهله كما تعود الناس أن يترفوا فى هذه الحياه
التي نحياها ، وفى هذا العصر الذى نعيش فيه . فمن أيسر الأشياء أن
يهبط رجل من أهل القصر إلى القرية ، ليس عليه فى ذلك إلا أن يمضى
أمامه حتى يقرب من شاطئ النهر ، ثم ينعطف إلى يمين فىرى أمامه طريقين
إحدهما ممهدة تمهيداً حسناً كأنها أعدت لصعود السيارات وانحدارها ،
والأخرى ممهدة تمهيداً مقارباً ضيقة بعض الضيق ، ولكنها أقصر من
الأخرى ، وهى الطريق التى يسلكها الراجلون ، وقد يرى فيها الفرسان الذين
يمتطون الخيل . وكذلك يستطيع الرجل من أهل القرية أن يرقى إلى
هذا القصر على قمة الربوة سالكاً الطريق الأولى إن أراد التيسير على
نفسه بالسعى الهين والرق السهل ، وإن أراد كذلك أن يلهو بما يلتقى فى
طريقه من هذه السيارات الصاعدة الهابطة بمن فيها من السادة والقادة
والغادات الحسان وسالكاً إن شاء الطريق الأخرى إذا لم يشفق من
التصعيد العسير الملتوى ، وإذا كان حريصاً بنوع خاص على أن يبلغ
القصر فى أقصر وقت ممكن وفى غير تلكؤ أو إبطاء .

هذه هى الصلة المادية بين الربوة والقرية ، وهى كما ترى قرية
ميسرة . فأما الصلة المعنوية فأشد من الصلة المادية قرباً وأعظم منها يسراً ،

وهى صلة السادة بالخدم ، أو صلة الخدم بالسادة لا أكثر ولا أقل . وما ينبغي أن تظن أن أهل القرية جميعاً خدم يعملون فى القصر يرقون إليه مع الصبح ويهبطون منه مع الليل ، فأهل القرية ليسوا من هذه الخدمة فى شيء ، بل هم لا يرقون إلى القصر إلا قليلا ، وهم حين يرقون إليه لا يبلغونه فضلاً عن أن يدخلوه ، وإنما يبلغون مكاتب الدائرة التى ألحقت به ، فيتصلون بهذا الموظف أو ذاك لما يمكن أن يكون بينهم وبين هذا الموظف من عمل . هم خدم للقصر على هذا النحو الذى تعرفه والذى تراه فى كل مكان يقوم فيه قصر فخم وتنسبط فيه أرض زراعية يملكها أصحاب القصر ، ويعيش من حوله قوم يعملون فى هذه الأرض ويعيشون مما يعملون . فجزء عظيم من السهل المنبسط فى أسفل الربوة ملك لسادة القصر ، وأهل هذه القرية هم الفلاحون الذين يزرعون هذه الأرض ويستغلونها ويستخلصون خيراتها لساداتهم . يقدمون إليهم كل هذه الخيرات ويعيشون على ما يساقط منها هنا وهناك وعلى ما يتفضل به عليهم ساداتهم من الفتات . لا يملكون شيئاً ، وليس لهم أمل فى أن يملكوا شيئاً ، لا يكادون يملكون أنفسهم ، وليس لهم أمل فى أن يستقلوا بملك أنفسهم . هم أحرار فى ظاهر الأمر يذهبون ويحيثون ، ويستيقظون وينامون ، ولكنهم رقيق فى حقيقة الأمر لأنهم يذهبون إلا إلى حيث يعملون ، ولا يحيثون إلا إلى حيث ينامون ، ولأنهم يطعمون ما أريد لهم أن يطعموا لا ما يريدون هم أن يطعموا . ولعلهم لا يريدون أن يطعموا إلا ما يسر لهم ، لأنهم لا يعرفون غير ما يسر لهم ، ولا يستطيعون

أن يطمعوا فيما لا علم لهم به . ولأنهم بعد ذلك لا يستطيعون أن يتصرفوا في شيء لأنهم لا يجدون شيئاً ، ولا يطمعون في أن يجدوا شيئاً يمكن أن يتصرفوا فيه . هم أحرار كالعبيد ، وعبيد كالأحرار . ليسوا راضين ولا ساخطين ؛ لأنهم لا يعرفون الرضا ولا السخط ، وإنما يعيشون كما تعيش النمل تدفعهم الغريزة وتدبر أمرهم إرادة سادتهم في القصر . ويجب أن نعرف بأن هؤلاء السادة قساة القلوب غلاظ الأكباد ، يؤثرون أنفسهم بكل شيء ، ولا يترلون لغيرهم عن شيء ؛ ولأجل هذا قلنا إنهم لا يمكن أن يكونوا من المصريين . وقد آن للحوادث أن تحدث ، وللقصة أن تأخذ طريقها إلى الوجود إن لم تكن قد أخذته من قبل .

وأول ما نشهده من حوادث القصة منظر هذا الشاعر الذي نيف على الستين ولكنه احتفظ بقوة توشك أن تكون قوة الشباب ، وهو على ذلك يتكلف الشيخوخة ويتصنع الضعف حين يراه سادة القصر ، وهو لا يمشى إلا متوكئاً على عصا يسرف في الانحناء عليها إذا رآه الناس ، فإذا خلا إلى نفسه اعتدلت قامته واستقام قدمه ، ونظر إلى ما حوله معجباً تياها . وقد تعود صاحب القصر الذي سنعرفه بعد قليل أن يراه منحنيًا يمشى على ثلاث ، كما كان يقول أبو الهول في سؤاله لأوديب ، فكان كلما رآه أنشد متضحكاً ساخراً قول جرير :

وتقول بوزع قد دببت على العصا هلا هزئت بغيرنا يا بوزع
ونحن نرى هذا الشاعر الشاب الشيخ وقد خرج من الجناح الذي

يقيم فيه عن يمين القصر ، وسعى منحدرًا في بطاء وتمهل يريد أن يبلغ المجلس الذى تعود أن يلتقى فيه صاحب القصر فى جوسق جميل على شاطئ النهر ، ولكنه يلتقى فى طريقه شيخاً لاحظ له من قوة ولا من شباب وهو البستانى عثمان الذى يقول له فى صوته المتهالك المحطم : « فى المكتب ياسيدى فى المكتب ! إنه لم يخرج اليوم من مكتبه ولم يهبط إلى الحديقة ولم يقف عند أزهاره التى تعود أن يطيل الوقوف عندها » . قال الشاعر الشيخ الشاب : « عم صباحاً يا عثمان ، فى المكتب ! ماذا سيصنع سيدك فى المكتب أيمكن أن يعيش الناس تحت السقوف وبين الجدران حين تصفو السماء وتتألق الشمس وتزين الأرض ويتهاذى النهر على هذا النحو ! دعه فى المكتب يا عثمان ولا تؤذنه بمكانى إلا أن يسألك . ، ولكن أرسل إلى القهوة ، قدحين لا قدحاً واحداً ، وقف على إبراهيم حتى يتقنها ، فأنت تعرف القهوة التى أحب » . قال عثمان : « طاعة ياسيدى ! ولكنى رأيت مولاي عابساً هذا الصباح كما لم أراه قط » . قال الشاعر : « عابساً ! عابساً ! لقد أدركه بعض الخبل ، إنه يعبس والدنيا باسمه ، ويحبس نفسه وكل شئ يدعوهُ إلى أن ينعم بهذا الجمال . دعه محبوساً عبوساً ، وأرسل إلى قهوتى ولا تنبه بمحضرى إلا أن يسألك » .

ثم مضى أمامه منحنيًا على عصاه مستأنياً متمهلاً ، حتى بلغ الجوسق فجلس إلى المائدة ونشر أمامه أوراقاً وأخذ بيده قلمًا وجعل يطيل النظر إلى النهر كأنما كان يستمليه ثم يكتب متباطئًا على ما بين يديه من الأوراق .

وكان النهر يعلو عليه حديثاً عجباً ، لأنه نهر عجيب بين الأنهار ، لا يعرف الناس له منبعاً ولا مصباً ، وإنما يروونه يسعى من الشرق إلى الغرب دون أن يستطيع أحد أن يقول : من أين يأتي ؟ ولا إلى أين يجري ؟ وقد حاول المستكشفون أن يعرفوا من أمره ما عرفوا من أمر الأنهار الأخرى في الأرض فلم يبلغوا من ذلك شيئاً ، ساءروا شاطئه من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق ، فوجدوا مدناً وقرى ، وصحارى ليس فيها مدن ولا قرى ، ولكنهم انتهوا دائماً إلى غابات كثاف يضيع النهر بينها ، ولا سبيل إلى النفوذ منها ولا إلى تتبعه فيها . وكأنما خلقت هذه الغابات في الشرق والغرب لتحجب النهر عن المستكشفين وتعمى آثاره على المتبعين . وهى تتكاثف وتتكاثف ، ويدنو بعض أشجارها من بعض ، ويلتف بعض أشجارها ببعض ، ويكاد بعض أشجارها يركب بعضاً ، حتى كأن النهر إنما ينبع من بيئة مظلمة أشد الإظلام ، ليصب في بيئة أخرى ليست أقل منها إظلاماً ولا حلولاً .

ولم يكن هذا هو الشيء الوحيد العجيب من أمر النهر ، وإنما كانت له خصلة أخرى ليست أقل من هذه الخصلة عجبا ؛ فقد عرف الناس

أحد شاطئيه ، وهو هذا الذى تقوم عليه الربوة ، وتنبسط فيه السهول
الخصبة المأهولة والصحارى الجدية المقفرة ، من الشمال . فأما شاطئه
الآخر ، مما يلي الجنوب ، فقد جهله الناس كما جهلوا منبع النهر ومصبه ،
ولم يعرفوا منه إلا شيئين اثنين : أحدهما أن من وراء النهر ، وعلى أمد منه
غير بعيد ، جبالا شاهقة ترتفع فى السماء ، وتبعد فى الارتفاع حتى لا يكاد
البصر يبلغ قممها إلا فى كثير من الجهد والمشقة . والثانى أن العبور إلى
هذا الشاطئ مخوف يملأ القلوب هولا ورعباً ؛ فقد تعارف الناس وتوارثوا
منذ أقدم العصور ، أن الذين يعبرون إليه لا يعودون ، وهم من أجل ذلك
لا يفكرون فى العبور إليه بل لا يتحدثون فى العبور إليه إلا فى كثير جداً
من الحذر والتحفظ والاحتياط . ولعلهم لا يذكرونه بالتصريح ، وإنما
يذكرونه بالإشارة والإيماء ، بل نشأ عن هذا أيضاً أن الناس كرهوا الدنو
الشديد من شاطئه الشمالى المعروف ، وآثروا أن يقيموا مدنهاهم وقراهم
على آماذ بعيدة منه قد قدرت تقديراً . وما أكثر المدن والقرى التى اتخذت
بينها وبين النهر حواجز كثافاً من الشجر ، كأنما كان الناس يكرهون
حتى أن تبلغ أبصارهم شاطئ النهر الذى يليهم ، لا نستثنى منهم إلا أهل
هذه الربوة التى أشرفت على النهر وكادت تسعى إليه سعياً ؛ فقد كانوا
لا يخافون النهر ولا يرهّبونه ولا يكادون يحفلون به ، إما لأنهم كانوا من
عنصر ممتاز لا يعرف الخوف ولا الرهب ولا يحفل بما يحفل به الناس ،
وإما لأنهم كانوا مشغولين عنه بحياتهم الناعمة وعيشهم الغض وتهالكهم

على ما يتاح لهم من لذات ، وإما لأنهم كانوا أذكي قلوباً وأنفذ بصائر من أن يقفوا عندما يقف عنده العامة ، ومن يدري ! لعل كل هذه الخصال مجتمعة وخصالا أخرى غيرها كانت تشغلهم بأنفسهم وتصدّهم عما يقبل الناس عليه من ألوان التفكير .

وكان الشاعر وحده بين أهل القصر وما يتصل به من الأجنحة والدور هو الذى يعنى بهذا النهر ويريد أن يستكشف أسرارهِ ويتعمق دقائق أمرهِ . ولكن للشعراء مذاهب فى البحث والاستقصاء لا تشبه مذاهب العلماء والفلاسفة إلا قليلا ؛ فلم يكن شاعرنا يتبع شاطئ النهر ليعرف منبعه أو مصبه ، ولم يكن يحاول أن يعبر إلى شاطئه الآخر ليعرف ما وراء النهر ، وإنما كان يكتفى حين يتاح له شيء من فراغ بأن يجلس فى هذا الجوسق مشرفاً على النهر محدقاً فيه مطيلاً النظر إليه ، يسأله ويلح فى السؤال ، ويستمليه ويسجل ما يملئ عليه .

وكان النهر بخيلاً بأسرارهِ . ضنيناً بدقائقهِ وحقائقهِ حتى على هذا الشاعر ، مع أن المعروف أن الأنهار تحب التحدث إلى الشعراء ؛ فكان الشاعر إذا سأل عن شيء من هذه الألغاز لم يرجع النهر عليه جواباً ، وإنما يتحدث إليه عن أسرار أخرى تلك التى كانت الشمس تفضى بها إليه فى رسائلها الطوال التى كانت تقرؤها عليه منذ يسفر الصبح إلى أن يظلم الليل ، والتى كانت النجوم تفضى بها إليه فى رسائل خاطفة متقطعة ترسلها إليه حين يغشى الليل ، والتى كان القمر يرسل بها إليه ضوؤه الهادئ المستقر بين

حين وحين ، والتي كان النسيم يهديها إليه في الليل مرة وفي النهار مرة أخرى ،
والتي كانت تعصف بها الريح أحياناً ويقصف بها الرعد أحياناً ، ويخفق بها
البرق أحياناً أخرى . وربما أملى عليه بعض ما كانت تتحدث به أمواجه
الهائلة المطمئنة من بعض النجوى .

وكان الشاعر يجد في هذه الأحاديث متاعاً ، ويسجل منها أطرافاً
يحتفظ بأكثرها لنفسه ، وربما عرض أقلها على أهل القصر فرضوا
حيناً وسخروا أحياناً .

وهو في هذه الساعة مقبل على النهر يسأله ويتلقى أحاديثه ، بعينه
حيناً ، إذ يرقب صفحته المضطربة في هدوء ، وبأذنيه حيناً آخر إذ
يسمع هذا الخريف الهادئ الذي يشبه نجوى المحبين . ولكن إقباله على
النهر لا يتصل ؛ فهذا الخادم قد أقبل يحمل إليه القهوة التي طلبها إليه ،
وهو لا يضع القهوة أمامه ثم ينصرف كما تعود أن يفعل في كل يوم ، وإنما
يقف صامتاً أول الأمر ؛ ثم يقول : ما ينبغي أن يطول انتظار مولاي لك
يا سيدى ، وإنما الخير إذا فرغت من قهوتك أن تستجيب لدعائه ؛ فقد
أنسيت أن أنبئك بأنه كلفنى أن أوجهك إليه متى أقبلت ، وما أرى إلا
أنه يجهل مقدمك إلى الآن .

قال الشاعر : فدعه يجهل مقدمى حتى أسعى إليه بعد قليل .
قال الخادم : لا تبطئ يا سيدى ، فما أرى إلا أنه شديد الحاجة

إلى لقائك ، وأكبر الظن أنه لم ينم من ليلته ، وأن أمراً ذا بال ينغص عليه حياته .

قال الشاعر : وما ذاك ؟

قال الخادم : لا أدري ! ولكنى أعلم أنه أنفق آخر الليل في مكتبه ذاهباً جائياً ، وأنه لم يصب من إفطاره إلا القهوة ، وأنه كان مكثوداً مجهوداً يتكلف القوة والجلد ، وأحسب أن ابنه الشاب هو مصدر هذا الهم وأصل هذا العناء ، فإن له كما تعلم خطوباً لا تنتهى .

قال الشاعر : حسبك فقد فهمت عنك ، أني مولاك بأنى سأرقى إليه بعد قليل .

ووقف الخادم لحظة لا يقول شيئاً ، ولكنه يدير في نفسه أن هذا الرجل محقق يؤثر حديث الأنهار على حديث الناس ، ثم نظر فإذا الشاعر قد أعرض عنه وأقبل على النهر ينظر إليه والقلم في يده كأنه يستمليه ، فلم ير بداً من أن ينصرف متباطئاً وفي نفسه كثير من الغيظ . وليس من شك في أن حديث النهر كان أحسن موقعاً في نفس الشاعر من حديث هذا الخادم الذى لم يكن ينبئ بشيء جديد . فهو يعلم أن لذلك الفتى المتروك خطوباً لا تنقضى ، بعضها يحدث في القصر نفسه ، وبعضها يحدث فيما يتصل به من الأجحة والدور ، وبعضها يحدث في القرية المقيمة في أسفل الربوة ، وبعضها يتجاوز القصر والقرية إلى أماكن قرية أو بعيدة ، وهو يعلم أن هذه الخطوب كثيراً ما تشغل صاحب

القصر وتثير في نفسه ألواناً مختلفة من الشعور . فهو مرة راض عنها ومبتسم لها ، يرى أن ابنه قتي قد نيف على العشرين ومن حق الشباب أن يلهو ويعبث . وهو مرة ضيق بها منكر لها ، يرى أن للهو حدوداً لا ينبغي أن يعدوها الفتيان مهما يكن حظهم من نشاط الشباب ، وهو مرة ساخط أشد السخط ثائر أعنف الثورة ، يرى أن ابنه قد أسرف في تعدى الحدود وتجاوز الممكن من لهو الشباب . وهو إذا بلغ هذا الطور من أطوار الغضب لم يؤثر نفسه بنتائجه وإنما يشيع هذه النتائج من حوله ، ويريد أهل القصر جميعاً على أن يثوروا كما ثار ويسخطوا كما سخط ، ويرهق امرأته من أمرها عسراً ، يحملها أوزار هذا القتي الذي لا يعرف القصد ، ولا يستطيع أن يقف نفسه عندما ينبغي أن تقف عنده من الحدود ، يرد ذلك إلى أن أمه لم تحسن تربيته ، ولم تعرف كيف تنشئه ، ولم تستطع قط أن تمتنع عن تدليله وتيسير كل ما يعرض له من أمر عسير .

ثم إن صاحب القصر لا يشق على نفسه وعلى أهله وذوى خاصته وحدهم حين يتورط ابنه في خطيئة من الخطايا ، وإنما هو معلن لثورته مشيع لسخطه ، يريد أن يشرك الناس جميعاً والأشياء جميعاً فيما يجد : فهو يتجههم للزائرين ويلقاهم بوجه عابس بغيض . ويتحدث إليهم من طرف اللسان ، وما يزال يتكلف من ذلك فنوناً وفنوناً حتى يضطربهم إلى أن يسألوه عن أمره . فإذا فعلوا أنبأهم بهذه الأحداث الجسام التي يحدثها ابنه الطائش المفتون ، ومضى في أحاديث لا آخر لها ،

يجد في ذلك تسرية عن نفسه ، ويجدون فيه إملالا لنفوسهم . ولكن لا بد مما ليس منه بد ؛ فقد ينبغي أن نقبل الأصدقاء على علاقتهم ليقبلونا على علاقتنا ، وأن نأخذهم كما هم ليأخذونا كما نحن .

والشاعر بالطبع أشد الناس تعرضاً لهذا السيل الجارف من الأحاديث عن هفوات الفتى ونزواته وأحداثه التي يحدثها هنا وهناك ، لمكانه القريب من صاحب القصر . فأى غرابة في أن يفر بنفسه بين حين وحين من هذا الامتحان ، ويخلو إلى نهره هذا العزيز فيسمع منه ويقول له ! وأى غرابة في أن يعرض عن الخادم حين يريد أن يشق عليه بهذا الحديث فيقفه ثم يصرفه في غير رقة ولا لين ! أليس يكفيه ما يسمع من السيد ! ألم يبق إلا أن يشقيه الخدم أيضاً بهذه الأحاديث !

كانت أحاديث هذا الفتى إذن معادة مملولة بالقياس إليه على حين لم تكن أحاديث النهر معادة ولا مملولة ، وإن كانت شاقة عسيرة دائماً . فقد كان النهر عصياً ألباً ، يتحدث بما يريد هو لا بما يريده سائلوه . وكان في تلك الساعة يقرأ على شاعرنا ألواناً من رسائل اختلسها من ريح الشمال ، وكانت تحملها إلى ظلال قوم عبروا النهر ولم يعودوا ، وكانت هذه الرسائل تصور ما يضطرم في بعض القلوب من لهيب الحزن والأسى ، وما يزهر في بعضها الآخر من الذكريات ، وما يساور بعض النفوس من يأس يحجب عبور النهر إلى الأحياء الآمين ، ومن حرص على الحياة يجعل عبور النهر مروعاً مخيفاً .

وكان الشاعر يستمع لهذه الرسائل ، ويستمتع بما فيها استماعاً حزيناً شاحباً يلائم آمال الناس التي لا تنقضي وقدرتهم التي لا تمتد إلى أمد بعيد ، كما يلائم حبه للحياة وشوقهم إلى من فارقوا الحياة ، وكما يلائم ما يشيع في قلوبهم من هذه القوة الضعيفة التي تعجز عن استبقاء الأشياء فتحفظ بذكراها ، ومن هذا الضعف القوى الذي يأتي أن يسلم الذكرى للنسيان ، فيستبقها وينميها ويتخذ منها وسائل لاستبقاء الحياة وتنمية ما فيها من نعيم قليل واحتمال ما فيها من بؤس كثير .

وقد هم الشاعر غير مرة أن يتقدم إلى النهر في طي هذه الرسائل الإنسانية الممتعة المحزنة ، ونشر رسائل أخرى ليس لها حظ من حزن ولها حظ عظيم من المتاع . فما أكثر ما كان النهر يقرأ عليه رسائل يسعى بها النسيم بين أزهار الشمال النضرة وأزهار الجنوب الداوية الذابلة ! وما أكثر ما كان النهر يقرأ عليه أنباء السماء تحملها أشعة النجوم أو ضوء القمر أو نور الشمس ! بل ما أكثر ما كان الشاعر يستحب هذه النجوى التي تكون بين أمواج النهر متحدة بأنباء الشرق ذلك الذي لم يصل إليه أحد ، حاملة هذه الأنباء إلى الغرب الذي لا يصل إليه أحد .

ولكن النهر كان يأتي دائماً أن يقرأ على الشاعر أو يملأ عليه شيئاً غير ما يريده هو . وكان الشاعر يجد في هذا الإباء والامتناع ما يشقيه ويرضيه في وقت واحد : يشقيه لأنه يبعده عما يحب ، ويرضيه لأنه يأتيه بما يلذه ويمتعه . وهل حياة الشعراء إلا مزاج من الشقاء والرضا ! .

ولو خير الشاعر لاختار أن تتصل خلوته إلى النهر أطول وقت ممكن ، وأن يحتمل من شدوذه واستبداده ما شاء النهر أن يحتمل . ولكن الشاعر لم يكن مخيراً في شيء . ومتى خير الشعراء وأصحاب الفنون في شيء ! إنما هم عبيد الطبيعة ، تفرض عليهم ما فيها من جمال وقبح ومن نعيم وبؤس ، وتخيل إليهم أو يخيّلون هم إلى أنفسهم أنهم أحرار يستنبطون من الطبيعة أسرارها ويصوغونها في صيغهم الفنية المألوفة شعراً أو رسماً أو نحتاً أو تصويراً أو غناء أو إيقاعاً .

وليس أدل على ذلك من أن شاعرنا قد كان عبداً لهذا النهر ، ولم يكن يستطيع حتى أن ينعم بهذا الرق ، وإنما كان يصرف عنه من وقت إلى وقت بطاريّ يطرأ أو طارق يطرق . وليس كل الطواريّ يمكن أن يدفع في يسر ، وليس كل الطارقين يمكن أن يرد في لين أو عنف ، وقد استطاع الشاعر أن يرد الخادم حين هم أن يصرفه عن النهر ، ولكن من له بأن يرد هذا الطارق الذي وضع يده في رفق على كتفه ونشر في الجو ضحكاً عريضاً وهو يقول في صوت متقطع : هانتذا تخلو إلى نهرك لتقول له وتسمع منه . متى تنصرف عن أوهام الشعراء إلى ما يحيط بك من حقائق الحياة !

ويرفع الشاعر رأسه فيرى ابن صاحب القصر قد قام عن يمينه جميل
المنظر رائع الطلعة معتدل القامة حاد النظرات ، قد امتلأ قوة ونشاطاً ،
وظهر على وجهه المشرق شيء من الجلد الحزين حاول أن يخفيه بهذا الضحك
العريض الذي كان ينشره من حوله في كثير من التكلف .

ولست أخفى على القارئ أنني حائر أشد الحيرة في أمر هذا الفتى ، كما
أني حائر أشد الحيرة في أمر أهل الربوة جميعاً ؛ فكلهم يلح على في أن
أجد له اسماً يتسمى به ويميزه بين غيره من الناس . وكلهم يلح على في أن
الأشخاص لا يستكملون وجودهم إلا إذا عرفت أسمائهم التي تحقق
التمايز فيما بينهم ونخرجهم من هذا الوجود الوهمي الذي يشبه العدم ، إلى
وجود ، إلا يكن واقعاً كل الوقوع ، فهو شيء بين بين ، أقرب إلى الواقع منه
إلى الوهم ، وأدنى إلى الحقيقة منه إلى الخيال . وكلهم يلح على في أن
القدماء الذين عاشوا بين النهرين في بعض عصور التاريخ لم يكونوا مخطئين
حين كانوا يرون أن اسم الرجل هو أخطر أجزاء حياته ، وحين كان هذا
الرأي يذهب بهم إلى شيء من الغلو فيعتقدون أن لأسمائهم إذا نقشت على
الجدران حظها من الحياة وحققها في القران ، لأنها تظل حية بعد موت

أصحابها ، أو لأنها تختصر وتستجمع ما يمكن أن يبقى من حياة أصحابها .
فللأسماء خطرهما إذن ، ويوشك الرجل الذى ليس له اسم ألا يكون
موجوداً . وهم من أجل ذلك يتصايحون بى من كل وجه مطالبين بأن أسميهم
بأسمائهم ليستمتعوا بالوجود الصحيح .

وما ينبغي أن تسألنى كيف يتصايحون وهم لم يوجدوا بعد ؛ فإنهم يتصايحون
على نحو خاص لا يسمعه أحد غيرى ، ولو أنى منحتم أسماءهم لكان من
الممكن أن يتجاوز تصايحهم أذنى إلى أذنك .

وما أظنك تنكر أن الشخص الوحيد الذى استطعت أن تتصوره
من أشخاص هذه القصة الذين مروا بك إلى الآن إنما هو شخص البستاني
الذى سميت عثمان ، ولو لم أسمه لما تبينته . كما أنك لم تبين إلى الآن
شخص الشاعر على كثرة ما أضفت إليه من الصفات ، ولا شخص هذا
الفتى الطارق على ما وصفت لك من منظره الجميل وطلعته الرائعة ووجهه
المشرق الوضاء .

فهم لا يتجاوزون الإنصاف حين يطالبونى بأن أسميهم بأسمائهم .
ولكن ماذا أصنع وأنا أشد الناس ضيقاً بابتكار الأسماء ، لا يطاوعنى
عقلى الضئيل ، ولا خيالى الكليل على هذا النحو من العبث . ثم أنا من جهة
أخرى أكره أن أختار الأسماء ؛ لأنى أخشى أن أختار أسماء لها أشخاص
قد اتخذوها لأنفسهم ، أو وسمهم بها آباؤهم ، وهذا أبغض الأشياء إلى ؛
فقد أنبأتك أن هذه القصة لم تقع أحداثها فى مصر ، ولا فى بلد متاخم

أو مجاور لمصر كما يقول الناس في هذه الأيام ، وإنما افترضت أن تكون أحداث القصة قد وقعت في إسبانيا ، لا لأنها وقعت في إسبانيا بالفعل ، فدون وقوعها في إسبانيا خطوب وأهوال ، بل لأن إسبانيا هي الأرض التي تبنى فيها قصور الخيال والتي وجدت فيها تلك الربى التي ذكرها الشاعر الموشح حين طلب إلى السحب أن تجل تيجانها بالحلى .

من أجل هذا كله أكره أن أسمى أهل هذه الربوة بأسمائهم ، وأخشى بنوع خاص أن يصرف بعض الناس هذه الأسماء وما يرون حولها من الحديث إلى أنفسهم ، فيظنوا أنى قد أردت بهم شراً وعرضت لهم من قريب أو من بعيد .

فإذا عاهدنى القراء على أن يؤمنوا أوثق الإيمان فيما بينهم وبين أنفسهم بأن هذه الربوة ليست قائمة في مصر ولا في البلاد المتاخمة أو المجاورة لها ، وبأن أهلها ليسوا مصريين ولا عرباً ولا شرقيين ، فقد أستطيع أن أجيب أشخاص القصة إلى ما يريدون ، وأهدى إلى كل واحد اسماً يميزه ويمنحه حظه من الوجود الذى يطمع فيه ويطمح إليه ، وإن كان الوجود فى نفسه ليس شيئاً يستحق الطمع فيه أو الطموح إليه .

وليس ينبغي لك أن تظن أنى أمزح أو أداعب حين أغض من قيمة الوجود ، فلست أنا فى هذا مبتدئاً ولا مبتكراً ، ولست فيه بدعاً من الناس . وما أكثر الفلاسفة والشعراء الذين ينكرون قيمة الوجود ويرونه شراً أى شر ، ويودون لو أنهم لم يدفعوا إليه ، أو لو أنه لم يدفع إليهم .

وأنت تذكر بالطبع أن أبا العلاء تمنى غير مرة لو أن حواء ماتت قبل أن تمنح زوجها الولد أو لو أنها ماتت عقب ولادتها لابنها الأول . وأنت تذكر كذلك أن أبا العلاء ، ومن قبله فلاسفة كثيرون ، كان يرى النسل جنائية لا ينبغي أن يجنيها الرجل العاقل الحازم ، وقد ظن بنفسه العقل والحزم ، فلم يقترب هذا الإثم ، ولم يتورط في هذه الجنائية .

ولو سمع لى أشخاص القصة وقبلوا نصحي لهم ومشورتي عليهم ، لما طمعوا في الوجود ولما طمحوا إليه ، ولما أثقلوا على بهذا الإلحاح في أن تكون لهم أسماء يعرفون بها ، كما أن لغيرهم من الناس أسماء يعرفون بها . ولكن أرسطاطاليس قد أخطأ تعريف الإنسان حين قال إنه حيوان ناطق . ولو قد وفق إلى الصواب لقال إنه حيوان أحمق . وليس أدل على حمقه من طمعه في الوجود وطموحه إليه وحبه للحياة .

وما دام هؤلاء الأشخاص قد استوفوا أعظم حظ ممكن من الحمق فأبوا إلا أن تكون لهم أسماء ، فلنُسَمَّ الشاعر راغباً ، ولنسم الفقي نعيماً ، فأما أبوه فلنرجئ تسميته إلى أن نلقاه في مكتبته ذاك الذى اتخذه لنفسه سجناً منذ آخر الليل .

قال الفقي للشاعر حين سكت عنه الضحك : قد كنت أبحث عنك لأودعك ، فقد أزمعت السفر قبل أن يقبل الليل ، وعزيز على أن أحرم هذه الساعات الحلوة التى أخلو فيها إليك ، فأسمع ما تنشدنى من شعرك الرائع الجميل ، وما تقص على من طرائف الأخبار ونوادرها .

قال الشاعر : وإنك لمسافر منذ اليوم ؟ وفيم هذا السفر الذى لم
تنبئنا به ولم تهيئنا له ، ولم يقدم القصر بين يديه هذه المقدمات التى
تعودت أن تسبق سفرك بأيام طوال ؟

قال نعيم وهو يتكلف الضحك ويخفى سخرية مرة : فإنها المأساة
يا سيدى ! إنها المأساة ! لقد زلزلت الأرض وغضبت السماء ، وأظلمت
الدنيا وفسد في حياة القصر كل شيء .

قال الشاعر : وما ذاك ؟

قال نعيم : ذاك أن الشيوخ ينسون الشباب ، أو قل إنهم
يستبقون الشباب لأنفسهم ، ويستأثرون بما يتيح لأصحابه من فرصة ، وما
يبيح لهم من تجاوز الحدود . يرون ذلك سائغاً حين يتصل بأشخاصهم ،
ويروونه حراماً حين يتصل بغيرهم من الناس .

قال الشاعر : فإني لم أفهم عنك إلى الآن .

قال نعيم : ولكنك قد قدرت من غير شك أن قد حدث في
القصر حدث ؛ فأنت لم تلق أبى في حديقته هذه الغلباء ، وجنته الفيحاء ،
كما تعودت أن تلقاه في كل يوم قبل أن يرتفع الضحى ، متنقلاً بين
زهرة وشجرة ، ملحاً على بستانيه بالأمر والنهى والسؤال والاستقصاء ، حتى
إذا أجهده سعيه وإلحاحه وحركته وسكونه وتشدت أنت عليه في أن يريح
نفسه ويريح بستانيه ويريحك أنت من هذا العناء ، أقبلتما معاً إلى هذا
الجوستق أو إلى غيره من جواسق الحديقة ، فأنفقتما سائر الضحى فيما

تجبان من الحديث . ولا شك في أنك قد أنكرت تخلف أبى عن مواعده ، واحتجابه عن أخص الناس به وأكرمهم عليه . ولا شك أنك قد سألت عن ذلك فعرفت من أنبائه أطرافاً .

قال الشاعر : لم أعرف إلا أنه محتجب في مكتبه ، وأنه طلب أن أوجه إليه متى أقبلت ، وقد غاظنى أن يحتجب الناس بين الجدران وتحت السقوف حين يصفو الجو ويعذب النسيم ، ويدعونا الجمال إلى أن نستمتع به في هذه الحديقة الرائعة النادرة؛ فلم أسع إليه وإنما سعت إلى النهر ؛ وكنت أريد أن أرقى إليه بعد ساعة تقصر أو تطول .

قال نعيم : فإن استطعت أن ترقى إليه الآن فافعل ؛ فهو في حاجة إلى من يؤنس وحدته ويسلى عزله ويبدد عنه هموماً ثقالا . وما أظن إلا أن حالته هذه ستتصل وتتصل ، فسأسافر حين يقبل الأصيل . ولكنى لن أسافر وحدى اليوم فسيتبعنى بعد أيام قوم نبت بهم الدار ولم يبق لهم فيها أرب . إنها المأساة يا سيدى ، إنها المأساة ! وإن شئت فقل إنه الجنون واختلاط العقل .

ثم سكت لحظة كان يعبث في أثنائها بسلسلة ذهبية قد علق بها جماعة من المفاتيح ، ثم قدم إلى الشاعر سيجارة وأشعل لنفسه سيجارة أخرى ، ورمى النهر بنظرة فيها كثير من السخط والغضب ، وأرسل في الجو تنفساً كان يريد أن يكون عميقاً بعيداً ولكن الفتى تجمل وتحفظ وأبى أن يخرج عن طوره ، فاكتفى بتنفس بعيد بعض الشيء ، وجعل ينظر إلى

الدخان وهو يتلوى تلويّاً خفيفاً فيّ الهواء ، ثم قال في صوت هادئ لا يخلو من حنق وسخرية : ومع ذلك فقد كنت أرى أبي إلى الآن مستأنياً حلّيماً : قال الشاعر : أمفصح أنت لي آخر الأمر عما تريد ، ومعرض أنت عن هذه الألغاز ؟

قال الفتى في صوت صاخب : تريد أن أفصح لك ؟ فاعلم أن أبي قد طردني من القصر . وإن لم يكفك هذا فاعلم أنه لم يطردني وحدي وإنما طرد معي قوماً آخرين ، أفهمت ؟ أرضيت ؟ قال الشاعر : لم أفهم شيئاً ولم أرض عن شيء ، وإنما ازددت جهلاً إلى جهل ، وحيرة إلى حيرة . فكيف أقصاك أبوك عن القصر ؟ وفيما كان هذا الإقصاء ؟ وكيف تلقيت أمره هذا على أنه جد ، مع أنك تعلم أنه يجد الآن ليهزل بعد ساعة ، وأنه لا يسخط إلا ليرضى ، وأن من العسير حين يستمع إليه خلطاؤه أن يتبينوا أهازل هو أم جاد ؟ قال الفتى : فإني لا أعلم أن الناس يتمازحون بالطلاق .

وجم الشاعر حين وقعت هذه الكلمة في نفسه ، كما وجم الفتى حين جرى بهذه الكلمة لسانه ، وأغرق الرجلان في صمت عميق كئيب طويل .

قال الشاعر بعد حين : فقد كانت لهذا كله أسباب خطيرة حقاً .
قال نعيم : إلى أقصى غايات الخطورة ؟ سرت بعض سيرته حين كان في سنى ، وما ينبغي أن أقول : سرت بعض سيرته في سنيه التي بلغها الآن ؛ فقد يجب أن يكون الأبناء حراساً على الأدب وحسن الذوق ورعاية اللياقة حين يتحدثون عن الآباء ، ولكنى على كل حال قد سرت بعض سيرته حين كان في سنى ، وأخطأتني التوفيق فلم يتح لى أن أخفى عليه كل شيء ، وما كاد يظهر على بعض ما فعلت حتى ثارت ثائرتة ، فأنكر وسخط ، وأغرق في الإنكار والسخط ، ثم ارتقى إلى الوعيد والنذير ، وأسرف على نفسه وعلى أهله في ذلك . فقليل له حين تجاوز طوره : فإن هذا الفتى لم يفعل إلا ما تعود أترابه أن يفعلوا وما كنت تفعل أنت حين كنت بين العشرين والثلاثين . هنالك لم يضبط نفسه ولم يملك أمره ، فأرسل كلمته المنكرة ، ثم اندفع إلى شيء يشبه أن يكون جنوناً فأقسم جهد

أيمانه لا رأى الليل في قصره هذا ولا على ربوته هذه . فأنا مسافر إذا كان الأصيل ، وسيلحق بي غيرى بعد يومين أو بعد أيام ، فقد ينبغي أن أهبط الدار لاستقبالهم في مستقرنا الجديد .

وهم الشاعر أن يتكلم ، ولكن نعيماً مضى في حديثه فقال : إنك رفيق والدى منذ صباه وشريكه في هزله وجده ، فهل تعلم أنه لقي من أبيه مثل ما ألقى منه ؟ وهل تعلم أنه لم يقبل على بعض لذاته كما أقبل أنا على لذاتي ؟ وهل تعلم أنه وفق دائماً لأن يخفى عبثه كله على أبيه ؟ أم هل تعلم أنه ، كغيره من الناس ، لها في أثناء شبابه وجد ، وأسرف على نفسه وعلى أسرته في اللهو أحياناً ، فأنكروا عليه في رفق ، ونصحوا له في حب ، ووجهوه إلى الخير ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وأكاد أقطع بأنهم لم يبلغوا مما أرادوا شيئاً .

قال الشاعر في شيء من العنف : حسبك ! فما ينبغي أن تقضى على أبيك .

قال نعيم : فهذه هي الجملة التي نسمعها دائماً : فما ينبغي أن نقضى على آبائنا ، وما ينبغي أن نخالف من أمرهم ، وما ينبغي أن نسوءهم بقول أو فعل ! هذه خصال فرضتها علينا التربية وفرضتها علينا الأخلاق وفرضها علينا الدين . ولكن أوافق أنت بأن الحياة لم تفرض على الآباء شيئاً بالقياس إلى أبنائهم يلائم هذه الخصال التي فرضت على الأبناء بالقياس إليهم ؟

قال الشاعر : فدعنا من الفلسفة واستقصاء البحث عن أحكام التربية والأخلاق والدين ، وحدثني عن هفوتك هذه التي هفوتها فجرت علينا كل هذا البلاء العظيم . أحق إذن ما يقال من أنه قد كانت لك في القرية خطوب ؟ فما عسى أن تكون هذه الخطوب ؟

قال نعيم : وما عسى أن تكون الخطوب التي تحدث لفتى فارغ مترف قد أقبل ينفق أشهراً بين أهله ، فهو يغدو ويروح لاهم له إلا نفسه وإلا لذاته القرية والبعيدة ، وكل شيء من حوله يغريه باللهو ويدفعه إليه ! وما أكثر ما يعبث الفتیان فلا تقف حركة الفلك ولا تغير الشمس مجراها في السماء ! إنما هي فتاة من أهل القرية راقية منظرها وفتنى سحر لحظها ، فصبت إليها نفسى ، وانتهى الأمر بنا إلى غايته من الإثم . لم أتحرج أنا ، ومتى تخرج السيد من اللهو بإحدى إمائه ! ولم تتحفظ هي ! ومتى تحفظت الأمة فلم تستجب لأحد سادتها !

قال الشاعر مروعاً : حسبك ، حسبك ! لست سيداً وليست أمة ، وإنما امتزت عليها بثروتك ومكانك الاجتماعى ، فأسرفت على نفسك وأسرفت عليها : غررتها فاغترت لك ، وما كان لك أن تخذعها ، وما كان لها أن تنخدع .

قال نعيم : ولكنى خدعتها فانخدعت .

قال الشاعر : فأنت تجنى الآن ثمرة هذا الظلم .

قال نعيم : فإنى أود لو أعلم أنكم لا تظلمون أهل القرية .

ولا تعنفون بهم ، ولا تشتطون عليهم ، ولا تظلمونهم ألواناً أخرى من الظلم ليست أقل من هذا الإثم الذى اقترفته خطراً ، ولا أهون منه شأنًا ، ولا أضعف منه تأثيراً فى حياتهم كلها .

إنكم تستذلونهم وتستغلونهم ، وتضطرونهم إلى البؤس وتفرضون عليهم الحرمان ، تكلفونهم ما تكلفونهم من ضروب الجهد والعناء ، حتى إذا آتى جهدهم ثمره وانتهى عناؤهم إلى نتيجة ، أخذتم خير ما تشر الأرض على أيديهم فأثرت به أنفسكم من دونهم واستمتعتم بنعيمه ، وهم ينظرون إليكم من قريتهم تلك التى توشك أن تكون قطعة من الجحيم ، وأنتم لا ترون بهذا بأساً ، ولا تجدون فى أنفسكم منه حرجاً . ولو استطعتم أن تردادوا ظلاماً لهم وإثقالاً عليهم لما تورعتم عن ذلك ولا زهدتم فيه ، ولكنكم تعصرونهم حتى لا تتركوا فيهم معتصراً ، ثم لا تجدون فى أنفسكم إلا الرضا ، ولا تحسون فى قلوبكم إلا الطمأنينة . تقبلون على هذا مصبحين ، وتقبلون على هذا ممسين ، وتنعمون بشمرة هذا بين الصباح والمساء ، وتنامون هادئين غير حافلين بهذا بين المساء والصباح .

وددت لو أعلم أن أهل القرية يجدون من اللذة فى استثمار الأرض لكم ورفع ثمرات الأرض إليكم ، واضطرارهم إلى الحرمان والبؤس ، مثل ما وجدت هذه الفتاة من النعيم والرضا حين خدعتها فأنخدعت ، وحين أغريتها فاستجابت للإغراء .

إني يا سيدى لا أجد أنى تجاوزت حدود الخلق والدين ، واقترفت

إثماً من الحق على أن أمحو آثاره ، ولكنى فى سبيل هذا كله لم أظلم ضحيتى وحدها ، وإنما ظلمت معها نفسى ، واعترفت بهذا الظلم فأصلحت منه ما استطعت إصلاحه : قدمت إلى هذه الفتاة كثيراً من الطرف وفنوناً من الهدايا ، رفعتها إلى نفسى أو نزلت إليها ، عشنا حيناً من الدهر عيشة سواء لم أكن سيداً ولم تكن أمة ، وإنما كنت عاشقاً خليلاً ، وكانت عاشقة خليلة . وأنت شاعر يا سيدى تعرف أن الحب يغير الأوضاع بين المحبين ، فيجعل السيد عبداً والعبد سيداً .

حدثنى عما تقدمون من الخير والبر إلى أهل هذه القرية حين تسخروهم من غير رفق ولا لين ، وفى غير محبة ولا مودة ، وفى غير إنصاف ولا عدل لمنافعكم ، وحين تستأثرون من دونهم بشمرة ما يبذلون من جهد ، وما يحتملون من عناء .

إن أرض القرية لخصبة تنبت الغنى ، ولكنها تنبت الغنى لكم ، ولا تنبت لأهلها إلا فقراً وبؤساً وحرماناً . وإنكم لتعلمون ذلك . وتقبلون عليه عن تعمد له ورغبة فيه ، لا تتخرجون ولا يخطر لكم أن تتخرجوا ؛ فإن لامكم فى ذلك لائم أو عابكم عليه عائب دعوتهم بالويل والثبور وعظائم الأمور ، ونظرتهم إلى أنفسهم كأنكم الضحايا ، وإلى لائميكم والعائنين عليكم كأنهم الأعداء المغيرون . فما لكم لا تحلون الحلال كله ولا تحرمون الحرام كله ، وإنما تتبعون فيما تحلون وما تحرمون أهواءكم ومنافعكم لا ما أحل الله ولا ما حرم !

ثم حدثني أواثق أنت بأنكم لا تستحلون لأنفسكم حين تسنح لكم
 الفرص ما تحرمون على غيركم ؟ أواثق أنت بأن أبي إنما يسخط على عيرة
 على الحق وغضباً للحرمان ورعاية للخلق والدين ؟ أما أنا فما أرى أنه
 يسخط على إلا ضناً بي أن أنزل إلى مكانة دون مكانتي ، وخوفاً على أن
 أتجاوز بهذا الحب طور المجون واللهو وأرتفع به إلى طور آخر يخشاه
 كل الخشية ويأباه أشد الإباء . ولو قد حدثته بأني أريد أن أتخذ هذه الفتاة
 لي زوجاً لجن جنونه وضل ضلاله . وثق بأنه لم يبلغ من الغضب ما بلغ
 إلا أنه أشفق أن أتحدث إليه هذا الحديث وآية ذلك أنه لم يلمنى ولن
 يلومني حين رأيته وحين يراني أداعب وألاعب فتيات من أسر ممتازة
 كأسرتنا الممتازة . إنه يراني لذلك كفوفاً ، ويرى هذه الأسر موضعاً
 لصهره ، فليس عليه بأس أن رأيته أقع في شرك هذه الفتاة أو تلك ،
 ولعله يسعى ويدبر الأمر لأقع في شرك هذه الفتاة أو تلك . أسرة ممتازة
 تصهر إلى أسرة ممتازة ، ومال يجمع إلى مال ، وقى كريم يقترن بفتاة كريمة
 كل هذه أمور ترضون عنها وتسعون إليها ، تنعمون إن انتهت إلى الخير ،
 ولا تبتشون إن انتهت إلى الشر ، من حق الشباب أن يمضي في طريقه
 التي قسمت له ، ولكنكم تمايزون بين الطرق التي قسمت للشباب ،
 فللأغنياء منهم طريق ، وللفقراء منهم طريق ، وللبائسين منهم طرق
 لا تحصى .

ثم أطرق الفتى إطراقة طويلة لم يكده الشاعر يتنبه إليها ، لأنه

كان مغرقاً في الذهول منذ اندفع الفتى في حديثه هذا الجريء العنيف الطويل . ورفع الفتى رأسه بعد حين باسمًا للشاعر وهو يقول : عد إلى نفسك أو أعد نفسك إليك ؛ فليس في الأمر ما يدعو إلى هذا الوجوم . إن الأمر أيسر جداً مما تظن ، إني خدعت خديجة ابنة الإسكاف فانخدعت ، ودعوته فاستجابت . ولو وقف الأمر عند هذا الحد لما سخط أبي ولا ثار ، ولكان من اليسير أن نرضى الفتاة ببعض الهدايا ، وأن نرضى أباه ببعض البر أو ببعض الابتسام ، وكان من اليسير أن أسافر فأطيل الغيبة فأنسى أنا وتنسى هي ، ويلتمس لها الزوج من طبقها هنا أو هناك ، ويلقى الستار على مأساة تحدث الآلاف من أمثالها في كل عام . ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، وإنما وقعت الفتاة من نفسى موقعا خاصاً ، واستقر حبها في قلبي استقراراً مكيناً ؛ فلست أرى من الاقتران بها بدءاً . ولم أتحدث بذلك إلى أبي ، ولكنه أحس ميلى إليه وتفكيرى فيه . . نهانى عن هذه الفتاة فلم أنته ، وأغراني بغيرها من بنات طبقتنا فلم يكن لإغرائه في نفسى صدى ، ثم أنذر فلم يغن النذير ، وحذر فلم ينفع التحذير ، فقال كلمته التى قالها ، وفعل فعلته التى فعلها حين أخرجه الغضب عن طور العقلاء .

وقد قلت لك آنفاً إني كنت أبحث عنك لأودعك قبل الرحيل وهذا حق ، ولكن هناك حقاً آخر لم أقله لك ، وقد كنت أبحث عنك لأقوله لك أيضاً ، وبعد ، فإنى سأسافر إذا دنا الأصيل ، وسيتبعنى

قوم آخرون ، ولكن هناك قوماً آخرين قد سبقوني إلى السفر ، وسألناهم في العاصمة . ولن يمضى الأمر بيني وبينهم كما مضى إلى الآن ، ولكنى سأأخذ خديجة لى زوجاً . فإن استطعت وإن أردت أن تلقى هذا النبأ الخطير إلى أبى فى رفق ، فافعل ، وإن عجزت أو أبيت فسيأتيه النبأ من طريق لا رفق فيه ولا لين .

وهم الشاعر أن يقف الفتى وأن يجادله فى بعض هذا الأمر ، وأن يرده إلى شيء من الرشد ، ولكن الفتى اندفع فى حديثه لا يلوى على شيء قائلاً : لا تتكلف مشقة ولا جهداً فى إقناعى بغير ما صممت عليه ؛ فإنك لن تبلغ من ذلك شيئاً . وإذا لم يكن بد من أن تبذل الجهد وتحتمل المشقة فافعل ذلك فى العناية بهذا الشيخ الذى سيعيش وحيداً فى قصره هذا الفخم الضخم بعد أن ينصرف عنه أهله ، وفى إعداداته ، مترقياً به ، لتلقى هذا النبأ الذى سينتهى إليه بعد أيام ما أظنها ستطول . وهنا صمت الفتى لحظة ، ثم لم يلبث أن اندفع فى ضحك متصل ، ولكنه ضحك لا يخلو من حزن ، ثم قال : وأكبر الظن أنك لن تحتمل كثيراً من العناء فى تعزية الشيخ عن هذه الخطوب ؛ فإنه شيخ قد احتفظ بفضل من شباب . وما أشك فى أن الملل قد وجد إلى نفسه سبيلاً ، وما أشك فى أنه يدير فى رأسه أمراً ذا بال ، وما أشك فى أن هذه الكلمة البغيضة التى انطلق بها لسانه حين تقدم الليل قد مدت له أسباباً وفتحت له أبواباً !

ثم وثب الفتى كأنما دفع إلى الوثوب. دفعاً ، وانحنى على الشاعر
فألقى على رأسه قبلة سريعة خاطفة ، ومضى أمامه لا يلتفت ولا يلوى
على شيء .

وظل الشاعر واجماً لحظات ، قد أخذه شيء يشبه الدوار لكثرة
ما سمع ولثقل ما سمع ، ثم ثابت نفسه إليه شيئاً فشيئاً ، وأراد أن يلتقي
نظرة إلى النهر ولكنه رأى نفسه ينهض متثاقلاً ، ثم يرقى إلى القصر متباطئاً
وقد أنسى عادته الحبيبة إليه فلم ينحن على العصا ، ولم يمش على ثلاث .

القراء بالطبع ينتظرون أن أرقى وأن يرقوا معى فى صحبة الشاعر إلى القصر لئرى صاحبه العظيم فى مكتبه ذاك الذى اتخذته لنفسه سجنًا منذ آخر الليل . ولكنى لن أفعل ، ولن يفعلوا ، فهم لا يستطيعون أن يدخلوا القصر ، ولا أن ينظروا إلى أبهائه الفخمة وأثاثه المترف الجميل ، إلا إذا أتحت أنا لهم ذلك . فالربوة كلها بما عليها ومن عليها ، والقصر كله بما فيه ومن فيه ، سر من أسرارى أبيح منهما للقراء ما أشاء ، وأخفى منهما على القراء ما أشاء ، ليس لهم أن ينازعوا فى ذلك أو ينكروا منه شيئاً . وقد أزمعت ألا أرقى معهم إلى القصر ، ولا أبقى معهم على الربوة استجابة لأصل من أصول الفن كما أراه أنا ، لا كما يراه النقاد . فلو قد رقيت معهم إلى القصر أو بقيت معهم على الربوة لا اتصل الحديث اتصالاً يوشك أن يكون مملاً ؛ لأنه يضطرب بهم وبى فى هذه الحديقة الفيحاء ، وهذا القصر الفخم ، بين ألوان من الترف وفنون من الحياة الناعمة ، قد يكون وصفها رائعاً ، وقد يكون العيش فيها ، ولو فى أثناء الأحلام وفى ظل الخيال ، محبباً إلى النفوس ، ولكنه يمل إذا اتصل ويسأم إذا طال . وليست الحياة ترفاً كلها ولا زينة كلها ، وليس العيش الواقعى

أو الخيالى يكسب قيمته من البهجة التى يسبغها الجمال على هذا المنظر أو ذاك من مناظر الطبيعة ، وعلى هذا المظهر أو ذاك من مظاهر الناس . فلهذا كله قيمته ، ولكن للقبح قيمته أيضاً ، وهى ليست أقل من قيمة الجمال شأناً ولا أهون منها خطراً ، ولعلها أن تكون أدعى إلى المنفعة ، وأبلغ أثراً فى إصلاح النفس ، وتقويم الخلق ، وتصويب الحكم على الأشياء . ولست أدرى ! هل تعمق ابن المعتز معناه ذاك الذى أوجزه فى البيتين المشهورين :

قلبي وثاب إلى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيأباه
يهم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبح فيهواه
ولكن الشيء المحقق أن القبح خليك أن يعشق وأن تصبو إليه النفوس ، وتقف عنده العقول ، ويستقصى دقائقه الكتاب والمفكرون . وما أظن أحداً يجادل فى أن نصيب القبح من حياة الناس أعظم من نصيب الجمال . كما أن نصيب البؤس من حياتهم أعظم من نصيب النعيم . فالكتاب الذين يعنون بالجمال والنعيم وحدهما ، ويعرضون عن القبح والبؤس ، إنما يعنون بأيسر الحياة ، ويعرضون عن أكثرها ؛ فهم يعلمون ويعلمون الناس ظاهراً من الأمر ، وهم يجهلون ويجهلون الناس بحقائق الأمور وبواطنها .

وأنا بعد هذا كله لا أريد أن أصرف نفسى وأن أصرف القراء عن جمال الربوة والقصر لأنى كلف بالقبح مشغوف بالبؤس ، وأريد أن أشرك القراء

فيما أجد من كلف وشغف ، وإنما هي طبيعة الأشياء ومنطق الفن وضرورة الحياة ، كل أولئك يقتضي أن أدع الربوة وقصرها حيناً ، وأن أصحب القراء إلى مكان ليس له حظ من جمال ، وليس لأهله نصيب من نعيم .

فقد رأينا فيما مضى من هذا الحديث أن هذه الربوة الرائعة لا تقوم وحدها على شاطئ النهر ، وإنما تقوم في أسفلها قرية بائسة وضيفة يعيش فيها قوم بائسون متضعون فهذه القرية لم تنشأ عبثاً ، ولم تقم في أسفل الربوة بغير غاية ، وإنما هي مكملة للربوة . وإن شئت فقل إن الربوة مكملة لها ؛ فقد اختلط الأمر على حقاً ، فلست أدري أيهما يتم صاحبه ، أيهما الأصل وأيهما الفرع . فهذه القرية هي التي تستغل الأرض وتستثمرها ، وتستخرج منها هذه الثروة الضخمة التي تتيح لأهل الربوة أن ينعموا وأن يترفوا ، وأن يستمتعوا بهذه الحياة الحلوة الفارغة ، وتتيح للربوة نفسها أن تزددان بجماها هذا الرائع الخلاب فلولا أهل القرية البائسون ما ارتفعت الأشجار في السماء ، ولا انبسطت الأزهار فوق الأرض ، ولا انتشر العشب على هذه الأرض كأنه البسط من السندس والحريز ، كما يقال ، ولا أتيحت لأهل الربوة هذه الصغائر التوافه اليومية التي لا تستقيم بدونها حياة للمترفين وغير المترفين . فالقرية إذن هي الأصل ، وليست الربوة إلا ثمرة من ثمراتها وأثراً من آثارها . ولكن واقع الأمر الاجتماعي غير هذا كله ، فقد استقر في نفوس أهل الربوة ، أنهم السادة المالكون ، وأن أهل القرية هم العبيد المملكون ، كما استقر ذلك في رءوس أهل القرية أنفسهم ، وكما استقر

ذلك . فى القوانين المكتوبة والنظم الشائعة . فأننا إذن معذور إذا اختلط الأمر على فلم أدر أكون الربوة أصلاً والقرية فرعاً كما يريد النظام وتريد القوانين ، أم تكون القرية هى الأصل والربوة هى الفرع كما تريد الحقائق الثابتة التى لا يبلغها جدال أو نزاع . وإذا كان غنى زيد يكون لفقر عمرو ، كما يقول أبو العلاء ، فقد لا نخطئ إذا عكسنا القضية وقلنا إن فقر عمرو يكون لغنى زيد .

وسواء أكانت القرية أصلاً أم فرعاً ، فإنها قد وجدت فى أسفل الربوة ، ولم توجد عبثاً . فلا بد من أن نهبط إليها وإن كرهنا ذلك ، ولا بد من أن نقيم فيها وإن شق علينا هذا المقام . وأنا أريح القراء من مشقة هذا الهبوط ، فلا أسلك بهم تلك الطريق العريضة الطويلة التى تزدهم فيها السيارات مصعدة ومصوبة ، ولا أسلك بهم هذه الطريقة الضيقة التى يزدهم فيها الفلاحون على أقدامهم وعلى دوابهم مصعدين ومصويين ، وإنما أبلغ بهم القرية من غير طريق ؛ لأننى أريد ذلك وأستطيعه ما دام الأمر إلى ، لا إلى أهل الربوة ، ولا إلى أهل القرية ؛ لا وإلى القراء . فالكتاب قديرون على شئ كثير إذا لم يفرضوا على أنفسهم ما يحب النقاد أن يفرضوا عليهم من القواعد والأصول .

نحن إذن فى القرية فى زقاق ضيق جداً لا يكاد يتسع لسعى اثنين أو ثلاثة إلا أن يتقدم بعضهم بعضاً شيئاً ما ، لتجد أقدامهم موضعها من الطريق . والزقاق قدر أبشع القذارة وأشنعها ، ترى العين فيه كل ما تكره ،

ويشم الأنف فيه كل ما يكره . قد عاش أهله عيشة البؤس والضر والإهمال ، لم يعنوا بصحتهم لأن أحداً لم يعلمهم أن الصحة شيء يعنى به الناس ، ولم يعنوا بنظافتهم لأن أحداً لم ينبئهم بأن النظافة شيء يستحب ولأنهم لو أحبوا النظافة والتمسوها لما وجدوا إليها سبيلاً ، قد قصرت أيديهم عن وسائلها وأدواتها قصوراً تاماً ؛ فهم يعيشون كما يستطيعون ، قد اختلط رجالهم ونسأؤهم وأطفالهم وحيوانهم ودواجنهم اختلاطاً بشعاً بغيضاً . وقد رأيت ما ينشأ عن هذا الاختلاط من الشر والنكر والفساد .

وفي أعماق هذا الزقاق دار منخفضة ليست عظيمة السعة ، ولكنها على كل حال أوسع مما يجاورها من الدور قد انخفض بابها فلا يستطيع الإنسان أن يدخلها معتدل القامة إلا أن يكون قزماً أو طفلاً ، فأما إذا تجاوز القصر إلى شيء من الطول فلا بد له من أن ينحني ليلج من هذا الباب ، وهو إذا تخطى عتبة الدار وجد نفسه في فناء له شيء من عمق قد ارتبط فيه حمار وانطلقت فيه دجاجات ، وارتفعت في بعض جوانبه مصطبة صغيرة ضيقة ، جلس عليها رجل قد تقدمت به السن وأدركه الضعف ، وكاد سمعه يثقل فهو لا يفقه ما يلقي إليه من حديث إلا أن يرتفع الصوت ، وكاد بصره يذهب فهو لا يرى إلا أقرب الأشياء إليه ولا يراه إلا في قليل من الوضوح . وبين يدي هذا الرجل نعال قديمة قد تخرقت وأدركها البلى ، وقطع من الجلد الرقيق والغليظ وأدوات يعمل بها في هذا الجلد وفي تلك النعال . وهو مطرق إلى جلده ونعاله وأدواته ، تعمل يده أحياناً في ترقيع نعل أو

إصلاحه وتكفان عن العمل أحياناً ولكنهما لا تسكنان حين تكفان عن العمل وإنما تعبثان بما أمام الرجل من جلد ونعال وأدوات

وقد يأخذ الرجل قطعة من الجلد بكلتا يديه يشدها إلى يمين ويشدها إلى يسار ، وقد يضع طرفاً من أطرافها في فمه كأنه يريد أن يقضمها ، وهو لا يريد قضمها ولا التهاماً ، وإنما يريد أن يمتحن متانة الجلد ، فهو يمسك طرفاً منه بما بقى من أسنانه ، ويمسك طرفيه الآخرين بيديه ، وهو يشد إلى هذه الجهة وإلى تلك ليستيقن أن هذا الجلد متين صالح لترقيع هذه النعل أو تلك . والرجل في أكثر أحواله صامت كالمتكلم ومتكلم كالصامت ، لا يوجه إلى أحد حديثاً ، ولا يكاد يجيب إن وجه أحد إليه الحديث ، ولكنه على ذلك متحرك الشفتين دائماً متقلب اللسان في الفم دائماً ، يغمغم بألفاظ لا يسمعها إلا هو والذين يدنون منه أشد الدنو . وهذه الألفاظ غامضة مختلطة ؛ فهو أحياناً يتحدث إلى جلده ونعاله يصف رثائها ومتانتها وحاجتها إلى الرق والإصلاح ، وأحياناً يتحدث إلى أدواته يصف مضيتها وكلالها وعجزها وقوتها ، وأحياناً يتحدث إلى نفسه فينشد محفوظات له من هذا الشعر العامى الذى تجرى به الألسنة وتسير فيه الحكم والأمثال . وعن يمينك وشمالك إذا تجاوزت عتبة الدار حجرتان ليس باباهما أقل انخفاضاً من باب الدار ، ولعلهما أن يكونا أدنى منه إلى الأرض . فإذا دخلت إحدى هاتين الغرفتين لم تجد فيها إلا حصيراً قد ألقى على الأرض ، وصندوقاً حقيراً قد وضع في زاوية من زواياها ، وجماعة من هذا الخبز العريض الرقيق

المستدير قد رص بعضها إلى بعض وارتفعت في زاوية من زوايا الحجرة كأنها العمود ، تأخذ منها الأسرة حين تريد أن تطعم ، وما تزال تأخذ منها والعمود ينخفض ويتضاءل ، حتى إذا دنا من الأرض عملت محبوبه صاحبة الدار على تجديده ورفعته - فكان إعداد الذرة وإشعال الفرن إلى جانب المصطبة التي يعمل عليها الشيخ ، وانطلاق الدخان ، ويضطر الشيخ في ذلك اليوم إلى أن يأخذ جلده ونعاله وأدواته ويجلس بها على الأرض أمام الدار- فإذا دخلت الحجرة الأخرى لم ترفها إلا حصيراً قد ألقى على الأرض ، وأغطية رثة قد نثرت هنا وهناك . فأما إحدى الحجرتين فقد كان يأوى إليها الشيخ الإسكاف ، ولنسمه محموداً ، وامراته محبوبه . وأما الحجرة الأخرى فقد كان يأوى إليها أبناء الدار وهم ثلاثة أكبرهم أحمد قد نيف على العشرين وكاد يبلغ الثلاثين ، وهو قتي طوال مظلم الوجه قوى الجسم قليل الكلام حائر الطرف لا تكاد عينه تستقر على شيء ، ولا تراه الدار إلا حين تغرب الشمس ويتقدم الليل لأنه يعمل في الحقول . وأصغرهم على لم يتجاوز الثانية عشرة بعد ، وهو صبي قد أهمل أشد الإهمال ، يلعب إن أتيح له اللعب ، ويعمل إن أتيح له العمل ، ويسرق إن أتيحت له السرقة . وبين هذين الابنين من أبناء الدار خديجة هذه التي كادت تبلغ العشرين والتي لم يدر من أين جاءت ، ولا لأى أبويها يمكن أن يضاف جمال وجهها الرائع واعتدال قامتها الجميلة ، وهذا الخفر الحلو الذي يصدر في دعة وهدوء وأمن عن عينيها الجميلتين ، وهذا الحياء العذب الذي يعرب عنه

وجهها الهادئ المطمئن ، وثغرها الذى يريد أن يبتسم ولكنه يمتنع على الابتسام ، وصوتها الممتلئ الرخيم الذى لا يكاد يتكلم إلا همساً ، وحركاتها الرشيقة المتزنة المعتدلة التى تدل على حياة قوية دافقة وعلى حياء شديد يمسك هذه القوة أن تندفع إلى أكثر مما ينبغى .

وهذه الفتاة الناعمة الغضة التى لا تلائم هذه الدار البائسة الخشنة ، تعيش بين أبويها وأخويها عيشة صامتة أو كالصامتة ، ساكنة أو كالساكنة ، مقبلة فى أكثر الوقت على مغزها تديره فى أناة ورقق ودعة . فإذا كان موسم الحصاد خرجت مع أترابها من بنات القرية إلى الحقول فصيّفت ، كما يقول أهل الريف المصرى ، مع المصيفات وعادت مع الأصيل إلى أهلها بما التقطت من الحب المنتثر فى الحقول . وإذا كان موسم القطن خرجت مع أترابها من بنات القرية ، فشاركت فى جنى القطن ، وعادت إلى أهلها مع الأصيل بما يتاح لها من أجر ضئيل . وقد رآها نعيم فيما يظهر مصيفة مع المصيفات أوجانية للقطن مع الجانيات ، فراقه منظرها الرائع فى ثيابها الرثة ، فلما أطال النظر إليها اشتد إعجابه بها ثم ميله إليها ، فعاود المرور بالجماعة التى كانت تعمل معها ، ثم حاول الوقوف إلى هذه الجماعة ، ثم حاول الحديث اليسير إلى هؤلاء العذارى ؛ وكان من شأن هذا كله أن يزيد إعجابه بهذه الفتاة وميله إليها وطمعه فيها ، وكان لحظ الفتاة وصوتها هما اللذان وقعا من نفس نعيم أغرب الوقع وأعمقه وأعظمه فى نفسه أثراً ، كتب فى دفتر يومياته يقول : « أوشك أن أظن بنفسى الجنون ؛ فإنى لا أنطلق

في الحقول ولا أتره في الحديقة ولا أدخل إلى نفسي في غرقى إلا رأيت عيناً
 ساحرة فاترة تنظر إلىّ في أناة وخفر ، فتنفذ إلى أعماق نفسي وتلدع قلبي
 لذعاً ألماً . وأنا لا أكاد أدخل إلى نفسي في غرقى أو خارج غرقى ، في
 القصر أو بعيداً عن القصر . إلا سمعت صوت هذه الفتاة يبلغ أذنى حلواً
 رقيقاً رقيقاً ، ثم يصل إلى نفسي فيحدث فيها نشوة لا أشبهها بالطرب
 الذى تحدثه الموسيقى ، وإنما أشبهها بالنشوة التى تحدثها الخمر . لقد
 استأثرت هذه الفتاة بنفسى . وما أرى أن الأمر سينتهى بينها وبينى كما
 تعودت الأمور أن تنتهى بينى وبين أترابها من حسان الريف .

القراء يعفوننى دون شك من أن أصور لهم ما كان بين نعيم وخديجة من قرب وبعد ، ومن دنو ونأى ، ومن هذه المحاولات الكثيرة المعقدة التى ينسج الحب خيوطها بين المحبين فى أناة ومهل ، ثم فى اندفاع وعجل ، ثم يأخذهم فيها كما تؤخذ الطير فيما ينصب لها من الشراك .

القراء يعفوننى من تصوير هذا كله ؛ فهم يعرفونه حق المعرفة ، يقرءونه فى القصص وفى شعر الشعراء ، ويجسده كثير منهم فى أنفسهم ويسمعونه فيما يدار عليهم من الحديث . وهم بعد هذا يستطيعون أن يصوروا نشأة هذا الحب بين خديجة ونعيم كما يشاءون ، لا جناح عليهم فيما يتكرون من صور وما يبتكرون من أحداث ، فكل هذا لا يعنينى ولا يعنى القصة فى كثير أو قليل ، وإنما الذى يعنينى ويعنى القصة ويعنى القراء هو أن هذين الفتين قد وقعا فى شرك من أشراك الحب ، فاضطربا فيه قليلاً أو كثيراً يحاولان أن يخلصا منه وأن يعودا إلى الأمن والحرية وفراغ البال . ولكن إفلات العاشقين من أشراك الحب ليس أقل عسراً من إفلات الطير من أشراكها حين تقع فيها . فقد كان إذن ما لم يكن بد من حدوثه ، ونظر الفتى المترف الغنى القوى الموفور فإذا هو أسير لخديجة بنت محمود الإسكاف .

ونظرت الفتاة البائسة اليائسة المطمئنة إلى بؤسها ويأسها ، فإذا هي موهبة بحب هذا الفتى ، الفتى المترف الغنى القوى الموفور . وكان الفتى يخلو إلى نفسه فيلقى نظرة من أعلى ترفه وشرفه وغناه إلى بؤس خديجة ويأسها وإعدامها ، فيأخذها شيء يشبه الدوار ، كيف هبط من أعلى عليين إلى أسفل سافلين ! وكانت الفتاة ترفع بصرها من أعماق يأسها وبؤسها وإعدامها في دارها تلك الحقيرة الفقيرة ، إلى هذا القصر الشاهق على هذه الربوة الشامخة ، فيأخذها شيء يشبه الدوار حين تفكر في أن الحب قد وثب بها إلى ذلك الفتى المترف الغنى القوى الموفور . ولكن الناس جميعاً يعلمون أن الحب لا يحتقر شيئاً كما يحتقر الرفعة والضعة ، ولا يسخر من شيء كما يسخر من تفاوت المراتب والطبقات ، وهو قد هبط بالفتى إلى الفتاة أوصعد بالفتاة إلى الفتى ! لا أدري ولكنه جعل كلا منهما لصاحبه سيداً وعبدًا . وقد انتهى أمر هذا الحب إلى أبوى نعيم ، فابتسما له أول الأمر ، لم يريا فيه إلا لوناً من عبث الشباب وسخرا منه بعد ذلك ، لم يريا فيه إلا شيئاً من الجموح في العبث ، وضاقا به بعد ذلك ، رأيا فيه غلواً من الفتى في هذا الجموح وصارفاً له عما يليق بمثله من الطموح إلى العظيم من الأمر ، وأخذتا ينصحان للفتى في رفق ، ثم في عنف ، ثم في إلحاح ، ولكن أبا الفتى غلا في إلحاحه وسخطه حتى انتهى الأمر إلى ما علمت . وانتهى أمر هذا الحب إلى أمّ خديجة ، فابتسمت له ابتسامة مرّاً ، وفرحت به فرحاً حزيناً ، وهمت أن تكفّ ابنتها ، ولكن نصحتها لم يغن شيئاً ،

وهمت أن تكتم الأمر على الشيخ الإسكاف ولكن لسان النساء لا يحب أن يستقر في أفواههن ، وهم الشيخان أن يكفا الفتاة ، فلما لم يبلغ شيئاً تواصلتا بكتمان الأمر على ابنتهما الفتى لأنه كان عنيفاً مخوفاً ، والأمر ينتهي إلى غايته ؛ وهذا نعيم قد قن بجديجة إلى أبعد حدود الفتنة ؛ فهو يعدها ويمنيها ، وهو يرغبها ويعريها ، وهو يختطفها آخر الأمر إن صح أن يكون سفرها إلى العاصمة اختطافاً ؛ فهي لم تكذ تدعى إلى السفر حتى استجابت للدعاء مسرعة واستعدت له متهاكة ، وارتفع الضحى ذات يوم فلم تر الأسرة خديجة ، وتقدم النهار فلم تعرف من أنبائها شيئاً ، وأقبل الأصيل فلم تعد معه إلى الدار ، وتقدم الليل فلم تعد ، وإنما عاد أخوها أحمد ثائراً يكظم ثورته ، وفائراً بكم فورته . أقبل متجهماً فلم يقل كلمة لأحد ، ولم يلق نظرة على أحد ، وإنما ألقى أدوات عمله في مكانها من الدار ، واندفع إلى حجرة أبويه فأخذ من عمود الخبز شيئاً التهمه وهو قائم لا يقول شيئاً ولا يرد على أحد حديثاً ، فلما التهم ما كان في يده من الخبز ألقى نظرة على ما حوله ومن حوله ، ثم أدار ظهره ومضى صامتاً لا يقول شيئاً ولا يلوى على شيء . قالت محبوبه لزوجها الحذاء في صوت مرتعد حزين : ما باله ؟ وما الذي عرض له من الخطب ؟ قال الشيخ في صوت هادئ ثابت يشيع فيه الحزن والغضب معاً : افتقد أخته فلم يجدها ، وتراعى إليه بعض ما طويلا عنه من الحديث . قالت محبوبه : وإذن ؟ قال الشيخ : وإذن فهو يسعى في أثر أخته ، وما أدري ! لعله لا يعود .

والناس يتمنون ويسرفون في التمني ، والأقدار تعبت بهم وبما يتمنون .
ذلك أن الناس لا يعرفون إلا أنفسهم وقليلاً مما يحيط بهم من الظروف ؛
فهم يدبرون ويقدرّون في دائرة ضيقة لا تكاد تتجاوزهم إلا قليلاً . وآية
ذلك أن نعيماً كان قد دبر أمره فأحسن تدبيره ، وقدر خطته فأحسن تقديرها .
لقد أحب الفتاة حباً لم يجرب مثله من قبل على كثرة ما جرب من العبت
واللهو والحب أيضاً ؛ فهو مصمم على أن يحدث حدثاً ذا خطر وهو المترف
الغنى القوى الموفور . سيهبط إلى هذه الفتاة اليائسة البائسة الفقيرة الحقيرة
فيتخذها لنفسه زوجاً ويقسم بينها وبينه ما أتيح له من ترف وشرف وقوة
وثناء . وهو قد قدر غضب أبويه وعرف كيف يستعد للتخلص من أعقاب
هذا الغضب . وهو قد قدر ما بينه وبين الفتاة من اختلاف المنزل وبعد الأمد ،
وعرف كيف يستعد لإلغاء هذه المسافة البعيدة . أليس قد اختطف الفتاة
فباعدها بينها وبين قريتها وبيثها وأهلها ليخلقها في العاصمة خلقاً جديداً ؟
لقد دبر وقدّر وأحسن التدبير والتقدير ، واطمأن إلى أنه بالغ بحبه ما أراد
له من الأمن والثقة ، ومن الدعة والهدوء . ولكنه لم ينس إلا شيئاً واحداً ،
وهو أن لهذه الفتاة أخاً في مثل سنه ليس مترفاً ولا غنياً ولا قوياً ولا موقوراً ،
وهو من أجل ذلك حاقده حائق ، قد ملأ السخط قلبه وملك الغيظ نفسه ،
فراه الناس إنساناً مثلهم يعدو ويروح ويعمل في الحرث والزرع ، ورأته
الطبيعة شيطانياً مريداً ينتظر أن تتاح له الفرصة ليملاً الأرض من حوله شراً
ونكراً . وقد أتيحت له الفرصة ؛ فهذه أخته التي كان يحبها وتخذها من

دون الناس ويؤثرها بقلبه كله ونفسه كلها ، قد غوت وهوت . أغواها ذلك
الفتى المترف الغنى القوى الموفور . وإذن . . .

وإذن ففي نفس الوقت الذى انصرف فيه نعيم عن الشاعر فرحاً حزيناً
ومسروراً كئيباً ، ونهض الشاعر فيه مسرعاً يرقى إلى القصر ليلقى صاحبه
في مكتبه ذاك ، في نفس هذا الوقت وقبل أن يصل الشاعر إلى صاحب
القصر يستفيض في القرية الفقيرة الفقيرة البائسة نبأ يملؤها خوفاً وروعاً ،
فقد لحق أحمد بأخته في العاصمة وقتلها وأسلم نفسه للشرطى ، معترفاً
بأنه اقترف هذا الإثم دفاعاً عن عرضه المكشوم .

فلندع القرية تتسامع بهذا النبأ وتبادل الحديث في تفسيره وتأويله ،
ولندع الأبوين وقد أخذتهما الصاعقة حين أتاهما هذا النبأ ، ولندع مسرعين
فنصعد إلى الربوة من أقصر الطرق المؤدية إليها ، فسرى الشاعر قد ارتقى
سلم القصر . ولم يكده يبلغ البهو الأول من أبهائه حتى رأى نفسه في مرآة
هناك ، ورأى أنه معتدل القامة يمشى على اثنتين ، فما أسرع ما ينحنى
على العصا ، وما أسرع ما يدور في رأسه هذا البيت كأنه يسمعه من
صاحب القصر :

وتقول بوزع قد دببت على العصا هلا هزئت بغيرنا يا بوزع

أنت بالطبع عجل ، تريد أن ترى صاحب القصر . وأنا مثلك عجل
أريد أن أراه ؛ لأن الأمد بينه وبينى قد بعد وأسرف في البعد . والشاعر
نفسه يريد أن يلقاه منذ سمع من نعيم ما سمع ، وعرف من أمر الأسرة
ما عرف ، وروعه من هذا الطلاق ما روعه . وهو من أجل ذلك حريص
على أن يسرع الخط . لولا أن إسراع الخطو لا يليق بالشيخ ، الذين
أفناهم مر الغداة وكر العشى ، وعطفهم الأيام على العصا ، وعلمتهم المشى
على ثلاث ، فخطوهم متقارب ، وسعيهم بطيء . وشاعرنا حريص دائماً
على أن يكون شيخاً مهالكاً ، قصير الخطو بطيء السعى . وهو على ذلك
كله عجل يريد أن يلتق صاحب القصر ، فيسمع منه ويقول له . وهو من
أجل ذلك لا يمد الخطو لأنه لا يستطيع ، أو لا يريد أن يستطيع أن يمد
الخطو ، وإنما يتعجل على أسلوبه في التعجل ، فيسعى إلى أمام ، لا يقف
كما تعود أن يقف دائماً أمام آيات الفن هذه الرائعة التي نسقت في أبهاء
القصر تنسيقاً ليس أقل منها روعة وجمالاً .

والشاعر متعود ألا يمر بهذه الآيات مرّاً سريعاً أو بطيئاً ، دون أن يقف
عندها ، ملقياً إليها تحيات الإعجاب والحب ، واقفاً عند هذا التمثال

مطيلاً إليه النظر ، مهدياً إليه الحديث ، منتظراً منه الجواب ، وواقفاً عند هذه الصورة محلاً معللاً ، مستوحياً مفتوناً . وواقفاً عند هذه القطعة أو تلك من قطع الأثاث الفخم القديم ، يلتهمها بعينه التهاماً ، ويداعبها بيده مداعبة رقيقة ، يصنع ذلك كلما دخل القصر ليلقى صاحبه في مكتبه أو في حجرة من حجرات الاستقبال ، لا يمنعه من ذلك مانع مهما يكن ، ولا يصرف عنه صارف مهما تكن الظروف . وهو من أجل ذلك ينفق وقتاً غير قصير منذ يبلغ أرقى سلم القصر إلى أن يصل إلى صاحبه ، سواء كان على موعد أم زار على غير ميعاد ، وربما ضرب لصاحب القصر موعداً للقاء في الساعة الحادية عشرة ، ولكنه يقول ضاحكاً : على أنى سأكون هنا قبل أن تبدأ الساعة العاشرة ؛ وربما نسي الموعد نسياناً تاماً ، وانتظره صاحب القصر ، فلما طال عليه الانتظار خرج يلتمسه في هذا البهو أو ذاك ، فوجده قائماً أمام صورة ، أو تمثال ، أو أثاث ، وقد استأثر به إعجاب ينتهي إلى شيء يشبه الدهول . ذلك أن هذا القصر ، ليس كغيره من قصور الأغنياء المترفين ، يزدان بفخامته وضخامته ، وامتلائه بالأثاث الفاخر الكثير . وقد نسق على وجه يلائم الذوق أولاً يلائمه ، ولكنه يدل دائماً على ضخامة الثروة ، وكثرة المال ، وحب الإنفاق ؛ وإنما هو قصر له فخامته وضخامته ، ولكنه أشبه بالمتحف منه بالقصر . فليس فيه إلا ما يروق النفس ، ويلذ العين ، ويملأ القلب رضى وإعجاباً ، قد جمعت فيه آيات من الفن ، على اختلاف هذا الفن في النوع ، وفي العصر

والطراز : ففيه القديم والحديث وما بين ذلك من آيات المثالين والمصورين ، ومن آيات العصور البعيدة التي يتحدث عنها التاريخ القديم ، وفيه من طرف الأثاث ضروب وألوان ، بحيث لا يستطيع ذو الذوق المتترف أن يدخله إلا لقي فيه فتنة أى فتنة ، وبحيث يستطيع ذو الذوق المتترف أن يزوره مصباحاً وممسياً فى كل يوم من أيام الأسبوع دون أن يقضى عجبه أو إعجابه بما فيه من هذه الروائع والآيات . فإذا مر الشاعر قصير الخطو بطيء السعى بهذه الآيات والروائع ، غير واقف عندها ولا مطيل نظره إليها ، فذلك الدليل كل الدليل على أنه معجل حقاً ، على أن الذى يعجله عما أحب وما سيحب دائماً ، لا يمكن أن يكون إلا أمراً ذا بال .

وبما يدل على أن الشاعر كان معجلاً حقاً ، وعلى أنه كان أشد عجلة منك ومنى إلى لقاء صاحب القصر ، أنه انتهى إلى البهو الذى ينبسط أمام المكتب ، وهم أن يمشى إلى المكتب فيطرق بابه طرقة خفيفة دون أن يقف وقفته تلك الطويلة أو يدور دورته تلك البطيئة حول هذه الكتب التى نسقت أجمل تنسيق وأدقه إلى هذه الجدران العراض المرتفعة ، ودون أن يمر يده فى كثير من الحب والهيام على صفوف هذه الكتب ، كأنما يحييها بيده تحية تشبه عطف الأب حين يمسح رأس ابنه فى كثير من الحنان - وربما أخذ منها كتاباً ، فجمع يديه حول دفتيه ، ثم فتحه ونظر فيه قائماً فأطال النظر ، ثم آثر صحبة الكتاب على لقاء صديقه ، فانهاز إلى زاوية من زوايا البهو ، وفرغ لكتابه منصرفاً إليه عن كل شيء وعن كل إنسان ،

حتى يأتى صديقه ، فيفرق فى عنف أو فى رفق بينه وبين هذا الكتاب الحبيب - ولكنه فى هذه المرة لم ينظر إلى الكتب ، كما أنه لم ينظر إلى التماثيل والصور إلا نظرات قصاراً خاطفة ، ومضى أمامه مستأنياً ، يريد باب المكتب ليطرقه ويفتحه ويغلقه من دونه حين يسمع الإذن له بالدخول . غير أنه لم يملك من الوصول إلى الباب ؛ فقد لقيه الخادم مكبراً له حفيّاً به ، ولكنه يؤذنه بأن سيده لن يلقى أحداً الآن ، لأنه خال فى هذه الساعة إلى ضيف قد أقبل منذ حين .

لست أدري أَرْضِي الشاعر عن هذا الحجاب أم ضاق به ، ولكني أعلم أنه تحول في بطاء إلى صف من صفوف هذه الكتب ، فحياه بطرفه ، ثم مسحه بيده ، ثم استخرج منه كتاباً ، وانزوى في ناحية من نواحي البهو ، وجعل ينظر فيه مقبلاً عليه غير فارغ له مع ذلك ، بل رافعاً رأسه ومديراً طرفه في البهو من حين إلى حين ، كأنما كان يترقب أن يخلو له وجه صديقه هذا الذي جعل أمره يتعقد منذ اليوم .

ثم جعل يحدث نفسه : إنما أشفق أن تنقطع بيني وبينه الأسباب ، وأن أصير إلى مثل الخال التي كنت أضيق بها وكانت تضيق بي حين اتصلت أسبابي بأسبابه ذات مساء منذ تلك الأعوام الطوال !

لقد كنت في تلك الأيام - لا رَدَّها الله - بائساً ممعناً في البؤس ، شقيماً مغرقاً في الشقاء ، بارعاً في كل شيء إلا فيما يوفر على حياة هينة وادعة لا أجد فيها الجوع في أكثر أيام الأسبوع ، ولا أتعرض فيها لذلك العزى الذي أذكره الآن ، فتدور بي هذه الحجرة وأود لو كنت نسياً منسياً . . .

لقد كنت أغدو من غرقتي تلك الحفيرة حين يرتفع الضحى ، مقفر النفس فارغ الجيب صفر اليد ، لا أجد من المال أيسر ما يتيح لي أن

أصيب ما يقيم الأود ، وكان همّي حين أغدوا على تلك الحال أن أتعرض لمن كنت أعرف من الصديق لعلّي أجد عند أحدهم من الرقة لي والرفق بي والعطف عليّ ما يرد عني ألم الجوع ويتيح لي هذين القدحين من القهوة اللذين كانا يطلقان لسانى من عقاله ويردانى إلى شيء من رضى النفس وراحة القلب ، ويفتحان لي أبواباً من الحديث وفنوناً من الشعر أسحر بها ذلك الصديق الذى استنقذنى من جوع الجسم ، وأستنقذه بها من جوع النفس والعقل والقلب . . .

وكذلك كنت عالة على الصديق ألتمس الطعام عند هذا والقهوة عند ذاك والكأس التى تنسينى نفسى عند صديق ثالث ، لم أكن أملك من أمر نفسى شيئاً ، وكان رفاقى يملكون من أمرى كل شيء . كان يكفى أن يصرفوا عني وجوههم ويغلقوا من دونى قلوبهم لأتردى فى هوة من البؤس لا أعرف لها قراراً . وكنت أبيع أولئك الصديق أدبى على اعتدادى به وإكبارى له بما يدفع عني غوائل البؤس وعوادى الزمان .

وقد لقيت ذلك الشيخ الشاب ذات مساء فى مجلس من مجالسنا تلك التى كنت أخلب فيها الرفاق بما كنت أسوق إليهم من ألوان الحديث ، وما كنت أطرفهم به من فنون الشعر ، وكنت فى تلك الليلة كأرق ما كنت أكون حساً ، وأدق ما كنت أكون شعوراً ، وأصنى ما كنت أكون ذوقاً ، قد صرفت عني القهوة كل حزن ، وذادت عني كل هم ، وكان الرفاق من حولى ينتظرون مقدم صديق لم أكن أعرفه ، وقد أبوا أن يسبقوه بما كانوا

يشتهون من طعام أو شراب ، رأوا ذلك من أيسر حقه عليهم ، ورأيت أن ليس له على حق ، لأننى لم أعرفه ولم أقدم إليه ، ولأننى قبل كل شيء كنت شديد الظماً إلى قهوتى تلك التى كنت أداعب ذوقها منذ ساعات ، فلم نكد نستقر فى مجلسنا حتى تعجلتها ، فلما أقبلت تلقيتها حفيماً بها ، ثم احتسيتها رقيقاً بها أيضاً ، وكانت كل جرعة منها تزيل عن قلبي وعقلي جزء من هذا الغشاء الصفيق الذى أطبق عليهما من الهم والحزن .

ولم أكد أفرغ من قهوتى حتى انجلى لى كل شيء ، وأشرق نفسى وأشرق وجهى وانطلق لسانى ، وأقبلت على الرفاق أداعبهم ، وأقبلوا على يثرون فى نفسى هذه الدعاية ، وإنا لنى ذلك وإذا سيارة تقف ، سيارة فخمة تصوّر الثراء والترف ، سيارة من تلك السيارات التى كنت أكره النظر إليها لأنه كان يمثل لى هذه الهوة من البؤس الذى كنت غارقاً فيه ، وهذه القمة من النعيم الذى لم أكن أفكر فى الطموح إليه ، وكان النظر إلى مثل هذه السيارة من مظاهر الترف والنعيم يغرينى بأبغض الأشياء إلى أشدها مقتاً فى نفسى وهو الحسد . ولم يكن لى بد من أن أنظر إلى هذه السيارة التى وقفت منا غير بعيد وفرضت نفسها على أبصارنا فرضاً ، ثم فتح بابها ونزل منها فى هدوء رجل قد جاوز الشباب ولم يبلغ الشيخوخة ، له سماء لا تشقّ على البصر كما يقول الشاعر القديم ، وهو يسعى إلينا مستأنياً ، ويحيينا مستعلياً ، والرفاق ينهضون له ويحتفون به ويستبقون إلى حسن لقائه أيهم يكون أحسن له لقاء وأعظم به احتفاء . وأنا أنهض معهم ،

فلم يكن من النهوض بد ، ولكنى لا أبسم ولا أعبس ، ولا أظهر بشاشة ولا انقباضاً ، بل لا أنظر إلى وجه هذا الطارئ الأنيق ، وإنما أنظر من حول كأتى أجتنب أن أراه . وهو يصافح الذين هشوا له واحتفوا به ، حتى إذا بلغنى ألقى إلى من علي تحية فاترة فرددتها عليه بمثلها . ورأى الرفاق أن يقدموني إليه فرعموا أنى الشاعر المعروف ، وقد سمع منهم مبتسماً لى غير مكترث بى .

ثم انتظمتنا المجلس كما كنا ، واستبق الرفاق مرة أخرى إلى سؤاله عما يريد من ألوان الشراب ، فلم يزد على أن قال : « الويسكى فقد تعلمون أنى لا أذوق غيره إذا كان المساء » .

ودارت كؤوس الويسكى على الندى وأصابتنى منها كأس فلم أكد أحسو منها حسوة أو حسوتين حتى رأيت هذا الطارئ الأنيق قد أفرغ كأسه فى جوفه إفراغاً ونظر إلى الرفاق وهو يقول فى سخرية : ما رأيت كالليلة فتوراً عن الشراب .

واستبق الرفاق مرة ثالثة إلى التهام ما فى أقداحهم ليبلغوا من صديقهم موقع الرضى ، وما هى إلا لحظة حتى صفرت الأقداح إلا قدحاً واحداً هو الذى كان أمامى ، فنظر إلى هذا الطارئ وسألنى بطرف لسانه : مالك لا تنشط للشراب ! أمرض أنت ؟ فأجبت بلهجته تلك الساخرة : فإنى أشرب لنفسى لا لك ، فهم أن يغضب ولكنه ملك نفسه وضرب إحدى يديه بالأخرى ، فأقبل الخادم ، فأشار إليه وإلى الأقداح ولم يقل شيئاً . وفهم عنه ما وراء السر

الخدام ما أراد ، فرفعت أقداح وجاءت أقداح أخرى ، ولبثت أنا جامداً أنظر إليهم وأنظر إلى قدحى الذى أبيت على الخادم أن يرفعه . وكأنى شغلت عما فى قدحى بالنظر إلى هؤلاء الذين أقبلوا على ما أمامهم من الطعام يلتهمون التهاماً ، وما أمامهم من الشراب يعبّونه عباً . وأنا لا أمس من الطعام أمامى شيئاً ، ولا أمس قدحى إلا رشفاً يسيراً . ولكنى أرى هذا الطارئ يرمقنى ، بطرف فيه كثير من غضب وكثير من سخرية ، ثم يقول لى فى ابتسامة غامضة وصوت مصمم : « لتفرغن قدحك أو لأسقينه الأرض » والرفاق يتضحكون ولكنى أرد عليه بهذه الجملة : « ما أنت وذاك » ثم أرميه بهذين السهمين :

« يا رءوفاً بنفسه وعنيفاً بغيره
وجواداً بشره وبخيلاً بخيره »

فلا يروغنى إلا ضحك يملأ الفضاء من حولنا ، وإقبال على قدحه يصبه فى فمه صباً ، والرفاق يصنعون صنيعه . فيرتفع ضحكهم وتفرغ أقداحهم . ويضرب الطارئ يداً بيد فإذا أقبل الخادم التى فى يده شيئاً من النقد وقال : « أدّ حسابك واحتفظ بما يبتى » ثم التفت إلى وقال : « شاعرٌ حقاً ، ما فى ذلك شك » . وأنا أنظر إليه وأريد أن أرد عليه ، ولكن يده تمتد فى سرعة إلى القدح أمامى فتخطفه اختطافاً وتريق ما فيه على الأرض وترده مكانه فارغاً كغيره من الأقداح ، ثم ينهض قائماً وهو يقول : « ليست هذه القهوة لنا بمجلس ، هلموا ! » . ثم يقبل على فيقيمنى فى قوة لا أملك لها مقاومة ويدفعنى دفعاً حتى يضعنى فى سيارته هذه الفخمة الوثيرة التى لم أقدر

قط أن سيتاح لى الصعود إليها فى يوم من الأيام ، وقد جلس الرفاق من حولى واتخذ هو مكانه إلى جانب السائق وهو يقول له : « إلى القصر » .

منذ تلك الليلة لم أفارق هذا الصديق . رضيت عن نفسه الجامعة ، ورضى عن لسانى الطويل . وأصببت فى صحبته هذه الحياة الراضية التى كنت أتحدث عنها فى شعرى على أنها من هذه المثل العليا التى يتصل بها الأمل ويرقى إليها الخيال ولا يبلغها من الناس إلا الأقلون .

منذ تلك الليلة لم أفارق صديقى هذا . أقيم معه فى قصره ذاك المنيف فى العاصمة إن أحب المقام فى العاصمة ، وأصعد معه إلى قصره الشاهق على هذه الربوة الرائقة الشائقة إن أحب أن يتخفف من حياة العاصمة .

وقد مضت على صحبتنا هذه السنون الطوال ، لم أنكر منه انحرافاً عنى أو انقباضاً لى ، ولم ينكر منى شيئاً على طول العشرة واتصال الألفة واللقاء وجه النهار وآخره وشطراً من الليل . وقد صرفنى عن حياتى تلك البائسة ، وكاد يصرفنى عن أصدقائى أولئك الذين كنت آلفهم فى تلك الحياة ، فأنا لا ألقاهم إلا حين يسعى إليهم أو يدعوهم إليه ، قد أصبحت له ظلاً ، وأصبحت عشرته لى لازمة من هذه اللوازم التى لا أستطيع عنها انصرافاً . وقد رضيت أخلاقه على علاقتها ، فأنا أنجذب غضبه وأتلمس رضاه ، لأنى أجد فى ذلك راحة وروحاً ولوناً من ألوان السعادة لا أحب أن أصرفه عن نفسه ولا أحب أن يصرفه عنى صارف ، وأنا من أجل ذلك أحب الكذب حين يتيح لى إشراق نفسه ووجهه ، وأكره الصدق حين يعرضنى لعضبه على

أو ازوراره غنى ، وأنا مع ذلك أنتهز ساعات الرضى وأخلص له النصيح وأحسن عليه المشورة ، وهو يسمع لى كثيراً ويزورّ غنى أحياناً .
 أنا إذن خادم من خدمه أو موظف من موظفى قصره لا أستطيع أن أصرف نفسى عنه ، وكل ما بينى وبين الخدم والموظفين من الفرق أنه لا يستطيع أن يصرف نفسه غنى ، على حين يستطيع أن يغيّر من خدمه وموظفيه من يضيق به أو يزهد منه !

أنا على كل حال خادم من خدمه ، لا أيسّر له ما يحتاج إليه فى حياته المادية ولكنى أعينه على احتمال هذه الحياة ، وأيسّر له القليل الذى يحتاج إليه فى حياته العقلية ، وهو فى الحق أقل من القليل ! قد أقرأ له فى كتاب بعض هذه الطرف والملح التى يحتاج إليها الفارغون ، وقد أفسر له بعض ما يعسر عليه من الألفاظ حين أقرأ له ، وقد أنشده بعض شعرى فيفهم ويرضى حيناً ، ويعرض ويسخر فى كثير من الأحيان حين لا يتاح له الفهم والذوق . وأبغض خصاله إلى وأشقها على أنه - على ضآلة حظه من العلم وعجزه كل العجز عن الكتابة - يشتاق بين حين وحين إلى أن يشارك فى بعض هذه المناقشات السخيفة التى تفيض بها أنهار الصحف ، هنالك يُشقى نفسه ويشقنى . فهو يحاول أن يكتب ما يريد فلا تستقيم له الكتابة ، ولا يطاوعه القلم ، فيدعو بالقهوة فى أثر القهوة ، وأنا أنظر إليه كالمعرض عنه ، وألاحظه كالمصرف عن ملاحظته إلى كتاب أنظر فيه ، حتى إذا استيأس من بلوغ ما يريد ، صاح بى مغضباً : « أين أنت »

أو « ماذا تصنع ! إنك لترانى أتكلف ما أتكلف ثم لا تصنع شيئاً وإنما أنت جامد فى مكانك كأنك الصنم » فأجيبه متضحكاً : « ما علمت أن الأصنام تقرأ كتاباً أو تخطه بيديها » . ثم أسأله عما يريد فيفضى إلى بذات نفسه ، فإذا ذات نفسه سخف لا ينقضى ، ولكنى أظهر له الرضى بما أسمع والإقبال على ما يحب ، ثم أقبل على السجارة والقهوة والقلم ، وأقرأ عليه بعد ساعة ما عجز عن كتابته فيرضى كل الرضى ، وتمتلئ نفسه غبطة وإبتهاجاً وهو لا يشك أقل الشك فى أنه هو الذى كتب ما قرأت عليه . ولكنه على ذلك ليس محمقاً ولا غافلاً فهو يأخذ منى الصحف التى كتبها ويخلو بها إلى نفسه ليكتبها بخطه ، ثم يهرع إلى التليفون فيدعو صديقه فى هذه الصحيفة أو تلك إلى الغداء أو إلى العشاء . فإذا أقبل وطعم وامتلات يده بما شاء الله أن تمتلئ به ، دفع إليه المقال فى شيء من الدعاية والمزاح فأخذه راضياً وقرأه معجباً وانصرف شاكراً مشكوراً . . . وأنا أشهد كل هذا العبث ، وأشارك فيه ، وأمقت نفسى أشد المقت وأزدرىها أعظم الازدراء ، مزمناً مع ذلك أن أعود إلى التمثيل حين يريد أن يعود إلى . على ذلك جرت حياتى معه وجرت حياته معى . هى حياة السيد مع الخادم إلا أن فيها شيئاً من العناية والإلطف .

وما أعتذر عن شيء مما فعلت وما أفعل ، وإن كنت كارهاً لكل ما فعلت ولكل ما أفعل ، فما أعرف أن عذراً يستقيم لى ، وكل ما أعلمه هو أنى أحب الحياة وأعلم علم يقين أن الحياة لا تحبى ، فأنا آخذها قسراً

وأنعم بها على كره منها دائماً ، وعلى كره منى فى كثير من الأحيان .
ولو قد أحببتى الحياة كما أحبها ليسرتنى لبعض العمل الذى يعصمنى
مما تورطت فيه أيام البؤس من تكفف الناس ، ومما أتورط فيه الآن من
العيش فى ظل هذا السيد الصديق ، مدعناً لما يريد هو ، لا لما أريد
أنا ، كاسباً هذه العيشة الراضية التى تحلو وجه النهار ، لتمر آخره بهذه
الذلة التى تخيل إلى الناس أنى سيد سعيد ، وتقنعنى كل الإقناع بأنى
عبد شقى .

فالحياة لا تحب الناس إلا حين يعملون لكسب حبها وهى لا تحتقر أحداً
كما تحتقر الذين يعيشون عيالاً على غيرهم . وقد خلقت عاجزاً عن كل
عمل منتج إلا هذا الشعر الذى أقرضه وأجد اللذة فى قرضه ، ويجد الناس
المتعة فى قراءته والاستماع له ، ولكنه على ذلك لا يسمن ولا يغنى من جوع !
ولقد نشرلى منه هذا السيد الصديق غير ديوان ، وما أشك فى أن الناس
قد قرءوه وما أشك مع ذلك فى أنى لم أفد من نشره شيئاً ! غيرى أقدر
منى على حل هذه المشكلة ! فأما أنا فحسبى أن أقرض الشعر وأن يقرأه
الناس وأن أحس رضاهم عنه وإعجابهم به ، وما دامت الحياة ميسرة
لى كأحسن ما يكون اليسر فلا على أن أكون سيداً أو عبداً ولا على أن أكون
عزيراً أو ذليلاً . . .

١١

ما أحب أن أقتحم الباب الذى لم يفتحمه الشاعر ، وأن أدخل بك على صاحب القصر خالياً إلى ضيفه ؛ لا لأنى أخشى أن يردنا الخادم عن هذا الباب مكبراً لنا حفيّاً بنا كما رد الشاعر ، أو ناهراً لنا متعللاً علينا كما كان خليقاً أن يصنع بكل من يحاول اقتحام هذا الباب ، فأنت وأنا مطمئنان إلى أننا نستطيع أن نقتحم الباب دون أن يشعر بنا هذا الحاجب ؛ لأن الفن قد منحنا هذه القلنسوة السحرية التى تخفيها على عيون الحجاب والرقباء ، وتتيح لنا أن نذهب حيث نشاء ومتى نشاء وكيف نشاء ، دون أن يستطيع أحد لنا رداً أو صيداً ، بل دون أن يستطيع أحد أن يفطن لنا أو أن يشعر بمكاننا .

ولست أدري لماذا لا يتنبه القراء إلى هذه الخصلة الرائعة من خصال الفن ، وإلى قدرته على أن يخفى الكاتب وقراءه على العيون والأسماع ، وسائر أدوات الحس والشعور ، بل على أن يتيح للكاتب وقرائه قدرة هائلة يلغون بها مسافات الزمان والمكان ، وما يقوم فى الزمان والمكان من عقبات تحول بين الناس وبين أن يروا ويسمعوا ويعلموا ما يريدون أن يروا وأن يسمعوا وأن يعلموا . فنحن نستطيع من غير شك أن ننسل إلى داخل المكتب

دون أن يشعر بنا أحد ، وأن نرى صاحب القصر وضييفه ، ونسمع ما يدور بينهما من حديث دون أن يأذنا بدخولنا عليهما ، أو يعرفا مكاننا منهما . بل نحن نستطيع أن نرقى إلى أى عصر من عصور التاريخ وما قبل التاريخ ، فى أى قطر من أقطار الأرض ، فنرى ونسمع ونعلم ما نريد كما أننا نستطيع أن نسبق الزمن ، وأن نمضى فى أعماق المستقبل ، إلى حيث نحب أن نمضى فى أى قطر من أقطار الأرض ، بل فى أى نجم من نجوم السماء ، لا يحدّ قدرتنا على ذلك إلا ما نريد نحن لا ما تريد الأحداث . وبعبارة أدق : يستطيع الكاتب وحده أن يفعل هذا كله وأن ينجي قراءه إن أراد بما رأى وما سمع وما علم ، أو ببعض ما رأى وما سمع وما علم . فأنا قادر إذن على أن أجتاز باب المكتب ، وأشارك فى زيارة هذا الضيف لصاحب القصر . ولكنى لا أفعل لسبيين : أولهما يتصل بالأخلاق ؛ فأنا لا أحب اقتحام الأبواب ، ولا التسمع على الناس حين يتحدثون ، وأبغض شئ إلى التطفل والوغول . ولن أغير من أخلاقى شيئاً لأرضى القراء ، مهما يكن حرصى على رضاهم ، ومهما يكن لرضاهم من خطر . والثانى يتصل بالفن ؛ فقد يحسن أن أعرف صاحب القصر إلى القراء ، قبل أن أدخلهم عليه ، حتى لا أفجأهم به وبضييفه وبما يديران بينهما من حديث . ذلك أجدر أن يهيئهم للقائه عن علم به ومعرفة لخصاله ، لفهم ما يصدر عنه من أعمال نائية ، وأقوال نائية عما يلائم الرشد والصواب . والقراء بعد ذلك ليسوا خيراً من الشاعر الذى هو صديق حميم لصاحب القصر . وإذا

كان هذا الشاعر قد رضى أن يرَدَّ عن صديقه ، وقبل أن ينتظر حتى يخلو له وجهه ويؤذن له بالدخول ، فليس على القراء بأس من أن ينتظروا كما انتظر .

والشاعر يستعين على الانتظار بالكتاب الذى ينظر فيه ، فليستعنى القراء على الانتظار بما سأسوق إليهم عن صاحب القصر من حديث . وقد لا يكون هذا الحديث ممتعاً إمتاع هذا الكتاب الذى ينظر فيه الشاعر ، ولكنه سيكون على كل حال كلاماً يقرأ . وما أكثر ما يفرغ القراء للكلام المكتوب الذى يساق إليهم فى كل يوم ، على ما يكون فيه من سخف ، وعلى ما يكون له من قيمة وإمتاع !

ورعوف صاحب القصر شيخ تقدمت به السن شيئاً ، ولكنها لم تبلغ من قوته ولا من شباب قلبه وجسمه شيئاً ، وإنما هو رجل طوال ، يميل إلى البدانة أكثر مما يميل إلى النحافة ، وهو رائع الطلعة ، رائق المنظر ، لا تقتحمه العين ، وإنما تتصل به فتطيل الاتصال ، تجد شيئاً من اللذة فى النظر إلى وجهه الذى لا يخلو من جمال مهيب ، والذى تضطرب فيه عيناان صغيرتان نفاذتان ، فيهما شيء من حدة ، ولكنهما تصوران هدوءاً ودعة وثقة ، تقرأ فيهما الإيمان بالنفس ، والشك فيما عداها ومن عداها من الأشياء والناس . وتقرأ فيهما الرضا المطمئن عن النفس ، والسخط على من عداها وما عداها من الأشياء والناس . وتقرأ فيهما أن لصاحبهما ضميراً مرناً أشد المرونة ، يسيراً أعظم اليسر ، يؤثر نفسه بكل شيء ، ويرى أن الحياة لم

تخلق إلا له ولم توقف إلا عليه ، وأنه إنما يحتمل مشاركة الناس له فيها احتمالاً ، ويطبقها عن تفضل وتطول .

تقرأ في هاتين العينين الأثرة في أبشع صورها ، وفي أظرف صورها أيضاً . وهذه القراءة لا تكذبك ولا تغرك عن الحقيقة الواقعة ؛ فصاحبنا أثر كأشبع ما تكون الأثرة ، وكأظرف ما تكون الأثرة في وقت واحد . يندفع إلى ما يريد في غير هوادة ولا أناة ولا إسماح ، لا يقبل أن تقوم بينه وبين ما يريد عقبة مهما تكن طبيعتها ، ومهما يكن مصدرها . وهو من أجل ذلك غضوب جامع الغضب ، عنيف مسرف في العنف ، لا يروض الصعاب حين تعرض له ، وإنما يحطمها أو يحطم نفسه من دونها . وهو من أجل ذلك يمر حتى لا يسيف مذاقه أشد الناس رياضة لنفسه على احتمال المكروه والصبر على الأذى ومراس أصحاب العنف والجماح ، ولكنه على ذلك تحلو شمائله ، وتحسن أخلاقه ، وترق حواشيه حين يقبل على اللذة ويأنس إلى الناس . لا يصدر في عنفه ولينه عن بغض للناس وحب لهم ، وإنما يصدر فيهما عن حب لنفسه وإيثار لها بما يراه خيراً ؛ يبتغى ذلك باللين ، حين يكون اللين سبيلاً إليه ، ويبتغى ذلك بالعنف حين لا يكون من العنف بد ، وهو على كل حال أقل الناس حظاً من القصد والاعتدال ، لا تراه يوماً أو ساعة على خلق سواء ، وإنما هو مندفع في الغضب حتى يصرف الناس عنه ، أو مندفع في الرضا حتى يتهالك الناس عليه . وأصل ذلك فيما يظهر أنه كان وحيد أبويه ، قد ولد

فى بيئة ناعمة مترفة موفورة الحظ من الثراء ، قد يسرت لها الأمور كلها تيسيراً ، ولم يولد له إخوة يشاركونه فى حب أبويه له ، وعطفهما عليه ، وحرصهما على تدليله وتنويله كل ما تطمح إليه شهواته الجامحة أو تطمع فيه أهوائه التى أرسلت على سجيته إرسالاً . وقد وصف الشاعر القديم بعض المدوحين بأنه لم يقل « لا » قط إلا فى تشهده ، وبأن لاءه كانت خليفة أن تكون « نعم » لولا تشهده وإيمانه بالله . ويمكننا أن نقول : إن صاحبنا هذا لم يسمع « لا » قط فى صباه ولا فى شبابه إلا حين كان يتعرض لما كان يمكن أن يسوءه أو يؤذيه . ومع ذلك فقد كان أبواه والموكلون بخدمته لا يصدونه عما يسوءه ولا يردونه عما يؤذيه إلا فى كثير من الرفق والاحتياى ، وفى ألوان من الترغيب والإغراء ، بحيث لم يكن يشعر أن هذه الكلمة البغيضة كلمة « لا » تقال أو توجه إليه . لم يكن يسمع هذه الكلمة ، ولكنه كان يقولها كثيراً : يقولها لأبويه ، ويقولها لخدمه ويقولها لأترابه حين يلتقى أترابه ، وكان هؤلاء جميعاً يسمعون منه هذه الكلمة ، فيرضون عنها ، ويبتهجون بها ، ويستجيبون لها . ولذلك نشأ على حب هذه الكلمة حين يجرى بها لسانه هو ، وعلى بغضها حين يجرى بها لسان غيره من الناس . وكان من الطبيعى ألا يعرف المصاعب ، ولا يمرن على رياضتها وتدليلها . وكان من الطبيعى كذلك ، ألا يفهم كيف يمتنع عليه غرض من الأغراض ، أو يفوته أمل من الآمال . كان مدلاً كأقصى ما يكون التدليل ، مترفاً إلى أبعد حدود الترف ، سيئ الخلق من أجل ذلك كأسوأ ما يكون

الخلق ، ضعيفاً كأشنع ما يكون الضعف ، عنيفاً كأبشع ما يكون العنف .
وليس من الغريب بعد ذلك أن نلاحظ أنه ، وقد أنفق حياة فارغة ميسرة ،
لم يتعلم إلا بمقدار ما استطاع ، وبمقدار ما أتاحت له هذه الحياة المدللة أن
يتعلم . فهو لم يذهب إلى مدرسة ، وإنما سعى إليه المعلمون . وهو لم يذعن
قط لمعلم أو أستاذ ، وإنما أذعن له دائماً أساتذته ومعلموه . منهم من وجد
إلى قلبه سبيلاً فألقى فيه بعض العلم وأودعه بعض المعرفة ، ومنهم من لم يجد
إلى قلبه سبيلاً فألقى أهواءه ونزواته ، وقنع من الجهد بما كان متاح له
من الأجر في آخر الشهر .

وما ينبغي أن تغرك آيات الفن هذه التي نسقت في القصر أحسن
تنسيق ، ولا صفوف الكتب هذه التي ملأت هذا البهو العريض مما يلي
مكتبه ؛ فهو لم يكسب من هذه الآيات ولم يجمع من هذه الكتب شيئاً ،
وإنما وجدها في القصر ، فلم يحفل بها أول الأمر ، ثم جعل يقف عند
بعضها من حين إلى حين ، ثم قن بها فتنة مصدرها الغرور أول الأمر ،
ثم أصبحت جزءاً من حياته ، لا يستطيع أن يستغنى عنها ، ولا يتصور
أن يعيش دون أن يراها مصباحاً وممسياً .

ولم يكد يبلغ أول أطوار الشباب ، حتى استجاب للدعاء شهواته
وغرائزه ، فعبث ما شاء له العبث ، وأفسد ما شاء له الفساد . وهم أبواه
أن يكفاه عن بعض ذلك في تلطف ورفق ، فلم يبلغا منه شيئاً ، وإنما
كان لومهما له إغراء ، ونصحهما له دفعاً إلى الغلو والإسراف . ثم أتاحت

له الغربة ، ففارق القصر والربوة إلى ما حولهما ، وطوف في الآفاق الغربية ، وأقام في العاصمة فأطال المقام ، ثم طوف في الآفاق البعيدة ، وزار العواصم الكبرى ، وألم بمواطن الجدّ والهزل ، وعاد إلى أبيه قتي كامل الفتوة ، قد ردت له الحياة إلى شيء من القصد في سيرته ملأً أبيه إعجاباً به ورضاً عنه ، وأتاح له النظر في شئون الأسرة قليلاً قليلاً . ولم تمض أعوام حتى كان مستقلاً بكل شيء ، متصرفاً في كل شيء ، معنياً أباه من كل جهد ، ناهضاً من دونه بكل عبء .

ولست أعرف شيئاً أشدّ تعقيداً ، ولا أكثر اختلاطاً ، ولا أعسر على الفهم من نفس الإنسان ؛ فهي ملتی المتناقضات ، وهي غريبة فيما يختلف عليها من الأطوار . لقد كان كل شيء في صبا رءوف يؤذن بأنه سيكون قتي ضائعاً ، مضيعاً ، لا يغني عن أسرته شيئاً ، وإذا هو يعود إليها قتي رشيداً إلى حد ما ، قادراً على النهوض بالأعباء ، نافذاً حين يتصرف في الشئون ، بعيد الحيلة حين يحتاج إلى بعد الحيلة . وكان هذا خليقاً أن يلتقي في روع الذين يعرفونه من قريب أنه الفتى كل الفتى ، قد جمع من أخلاق الرجال ما ينأى به عما يعيب ، ويرتفع به عن الصغائر ، وبهيته لجلائل الأعمال . وقد كان فيه من هذا كله شيء ، ولكنه على ذلك كان ضعيفاً أمام غرائزه ، متهاكاً على لذاته . يسمو إلى الجليل من الأمر ، ويعنى مع ذلك بالصغائر وسفاسف الأمور عناية مؤذية . يضبط نفسه أحياناً ، فيبلغ من ضبطها ما يريد ، ويحملها من عظيم

الأمر على ما يحب ، ثم يرسل لها العنان فجاءة ، فإذا هي تتابع الهوى حتى تجور عن القصد ، وتتورط في أعظم الشطط .

وقد التمتست الأسرة لابنها الزوج التي تلائم مكانه وجماله وثرأه ، فوفقت لما أرادت . وأصهر الفتى إلى أسرة صالحة ، وسعد بحياة زوجية ناعمة ، ولكن هدوءها لم يتصل ؛ فقد كان رءوف صاحب نزوات طالما آذت زوجه ، وطالما آذته هو ، وطالما أرهقته وأرهقت زوجه من أمرهما عسراً . ويمكن أن يقال إن نعيماً ابنه قد نشأ في بيئة ظاهرها النعمة ، وباطنها النقمة .

كل شيء من حوله ميسر إلا أمر أبويه ، فإنه كان عسيراً أشد العسر ، ملتوياً أعظم الالتواء . وكل قارئ يستطيع أن يصور لنفسه حياة هذه القصور التي يملؤها الترف ، ويشيع فيها النعيم ، وتفيض من حولها السعادة ، ولكنها تشتمل في أعماقها على غرفة أو غرفتين من غرفات الجحيم ، لا يرى الذين يأوون إليهما فيهما إلا الشر كل الشر ، والنكر كل النكر ، والعذاب كل العذاب . ولم يكن قصر رءوف الذي نشأ فيه نعيم إلا واحداً من هذه القصور : سعادة ظاهرة ، وشقاء خفي . أب يلهو ما وجد إلى اللهو سيلاً ، وأم تشقى ما استطاعت المرأة أن تحتمل الشقاء ، وخصومة وعبوس حين يلتقي الزوجان ، ووافق وابتسام حين يظهران للناس ، والصبي بين هذا كله يرى ويسمع ويحس ، ويسجل قلبه الصغير كل ما يرى ويسمع ويحس . وهو يؤثر أمه البائسة بالحب والرحمة والثناء . ويختص أباه الماجن بكثير من السخط واللوم ، ولكنه يخافه أشد الخوف من جهة ،

ويعجب به أشد الإعجاب من جهة أخرى . يكره سيرته مع أمه ، ويرضى عن سيرته مع الناس ، ويعجب بسيرته مع نفسه ، ويتحدث إلى ضميره ، بأنه إذا شب فسيكون أبر بزوجه مع أبيه ، ولكنه سيسير سيرة أبيه في الناس ، وسيؤثر نفسه من متاع الحياة بمثل ما يستمتع به أبوه . على أن رءوفاً لم ينشئ ابنه كما نشأ أبواه ، وإنما أخذه بشيء من الصرامة والحزم ، فكان هذا أيضاً مصدراً للخصومة بينه وبين زوجه ، ومصدراً للتعقيد في نفس الصبي الذي كان يجد من أمه اللين والإسماح ، ويجد من أبيه الصرامة والحزم ، فيرضى ويسخط ، ويحب ويغض ، وتتعقد نفسه على مر الأيام تعقداً شديداً .

قد كنت خليقاً أن أمضى معك في الحديث عن حياة رءوف في شيء من التفصيل ، وعن نشأة نعيم في شيء من الإطناب ، لولا أن باب المكتب يفتح ويخرج منه رءوف متضحكاً ، يشيع ضيفه إلى سلم القصر ، ثم يعود وهو لا يكاد يملك نفسه من ضحكك يريد أن يملأ أبهاء القصر ، فيصرف الشاعر عن كتابه ، ويصرفني أنا عما كنت أقص عليك من حديث .

وها هو ذا قد أقبل على الشاعر مغرقاً في الضحك ، يقول في صوت متقطع : ها أنت ذا ! لقد أطلت انتظارك منذ اليوم ، وإني لراض عن اضطراك إلى أن تنتظرنى كما انتظرتك قال الشاعر وهو ينهض متاثقلا ، ويرد الكتاب إلى مكانه من الصف : لست أدري أينما انتظر صاحبه ! لقد ذهبت إلى حيث تعودنا أن نلتقى ، فأنبشت بأنك تنتظرنى في هذا المكتب . ولن أبلغ من الحمق وخطل الرأي أن أترك اللجنة النضرة ، والسماء الصفو ، والجو الصحو ، والنهر الجميل ، لأحبس نفسى معك في هذا المكتب وإن كان جميلاً أنيقاً . على أنى لم أستطع حتى أن أستمع بالخلوة إلى هذا الجمال وقتاً قصيراً ؛ فقد أقبل ابنك نعيم ، فنغص على كل شيء . قال رءوف وهو يغرق في الضحك : ابني نعيم ! فهو إذن قد لقيك ، وقد ألقى إليك بسخافات

التي لا تنقضى ، والتي ليس لها رأس ولا ذيل . ولكن هلم ! ما قيامنا في هذا
البهو ؟ أقبل لأحبسك في هذا المكتب الذي تكره أن تجلس فيه ، أقبل
واجتهد في ألا تنحني على العصا إن استطعت ؛ فإن نفسي ليست ميالة
إلى شعر جرير ، أقبل واعدل قامتك إن استطعت إلى ذلك سبيلا . لعلك
قد شربت قهوتك : على ضفة النهر مستمتعاً بالجنة النظرة . والسماء الصفو ،
والجو الصحو ، والنهر الجميل ، أم تريد قدحاً آخر من القهوة ؟ ولكن
النهار قد انتصف أو كاد ينتصف ، ولم يبق بيننا وبين الغداء إلا ساعة
وبعض ساعة . ما تقول في قدح من قهوة أخرى خير من قهوتك تلك التي
احتسيتها على ضفة النهر الجميل ؟ ثم أغرق في ضحك طويل ، والشاعر
قائم واجم ينظر إليه ويسمع منه ولا يفهم عنه . . فلما سكنت عنه الضحك ،
قال بصوت ضخم مرتفع : الشراب يا غلام . ثم عاد إلى ضحك متقطع ،
وأخذ بذراع الشاعر وهو يقول : اعتمد على ذراعي إن شئت ، أو تعلق بها
إن أحببت ، ودع عصاك لا تأخذها يمينك ولا تنحن عليها ؛ فقد كان
يقال لنا في طور التأديب إن المهذبين من الناس لا يستصحبون عصيهم
إلى حيث يستقبلون ، وإنما يتركونها في مواضعها المقسومة لها حين يدخلون
الدور أو القصور . هلم ! هلم ! ثم مضى يقود الشاعر وكأنه يحمله حملاً ،
ويعلقه في الهواء تعليقاً ، حتى انتهى إلى مكتبه ، فأجلس الشاعر ، أو قل
وضع الشاعر وضعاً على كرسي عريض وثير ، وهمّ الشاعر أن يتكلم ،
ولكن رعواً أوماً إليه أن لا يفعل ، وقال في صوت هادئ بعض الشيء :

لا تسألني الآن عن شيء ولا تحدثني الآن بشيء ، وإنما أرح نفسك وأرحني من الحديث والاستماع ، حتى إذا أقبل الشراب وفرغنا من القدح الأول ، أخذنا في الحديث ؛ فأنبأتني بما عندك ، وما أرى أنك ستنبئني بشيء ذي خطر ، وتحدثت إليك بما عندي ، وما أرى إلا أني سأشغلك بقية يومك . فأسلف نفسك شيئاً من الراحة ؛ فإنك ستستقبل بعض العناء . ثم انصرف عنه ، وجعل يذرع الحجرة ذاهباً جائئاً ، مغرقاً في تفكير عميق .

وأقبل الخادم يحمل قواريره وأكوابه ، وهمّ أن يملأ القدحين . ولكن رءوفاً قال له في لهجة حلوة ، وعلى ثغره ابتسامة راضية : لا تشق على نفسك يا بني ، فسأقوم عنك بهذا الجهد ، ولكن امنع علينا بابنا ؛ فلسنا في حاجة إلى الواغلين . فأنحني الخادم وانصرف وأغلق الباب من دونه . وأقبل رءوف على قواريره وأكوابه فصب ومزج ، وقدم إلى الشاعر قدحه وهو يقول :

وكأسٍ شربتُ على لذة وأخرى تداويت منها بها
فاشرب هذه على لذتك ، ثم أداويك منها بالأخرى .

قال الشاعر : إن أمرك لعجب منذ اليوم أتتخذ هذه الحجرة لنفسك سجناً منذ آخر الليل ، وتحظر على نفسك التزول إلى الحديقة والاستمتاع بصفاء السماء وجمال النهر ، ولا تصيب من طعامك شيئاً حتى يظن الخدم بك الظنون ، ثم ها أنت ذا الآن لا تملك نفسك ولا تضبط أمرك ، وإنما تندفع في ضحكك لعل البكاء . . . وهنا قاطعه رءوف قائلاً : أن يكون خيراً

منه . كلا يا سيدى كلا ! إنه الضحك الذى يصور الرضا ، والأمن ،
وصفاء النفس ، واطمئنان القلب . ولكن ألم أقل لك إنا لن نتحدث حتى
نفرغ من قدحنا الأول ! ثم قال بعد صمت قصير : بعداً للخدم ! لا سبيل
إلى أن نخفى عليهم شيئاً ، ولا سبيل إلى أن نكف ألسنتهم عن الحديث بعلم
وبغير علم .

أكان الظمأ هو الذى دفعهما إلى الإسراع فى الشرب ، أم كان التلهف
على الخمر هو الذى أغراهما باستنفاد ما فى القدحين ، أم كان تعجل
الحديث هو الذى حثهما على أن يتعجلا إزالة ما بينهما وبينه من هذه
العقبة الرائقة الشائقة التى لم يكن شئ أحب إليهما من إزالتها ؟ مهما يكن
من شئ فقد أقبل كل منهما على قدحه شرباً ، فلم تمض إلا دقائق حتى
ارتويا هما ، وظمئ القدحان . ونهض رءوف فأعاد إلى القدحين ريهما ،
وأعاد إلى نفسه وإلى صديقه ظمأهما ، ولكنه كان ظمأ هادئاً مستأنياً لا عجلة
فيه ؛ فأقبل كلا الرجلين على صاحبه يستبقان إلى الحديث استباقاً ،
وأقبل كلا الرجلين على قدحه يحسو منه فى تمهل مثل حسو الطير ماء
الثماد . قال رءوف متضحكاً : أما الآن فتستطيع أن تستمع لى يا أبت
أو يابنى ؛ فسلك وانحناؤك على العصا يجعلانك لى أباً ، وسذاجتك وسلامة
نفسك تجعلانك لى ابناً ؛ فلى من غير شك أن أدعوك بأى الدعاءين شئت .
استمع لى إذن ، وافهم عنى ولا تعجل على ؛ فإنك لن تنبئنى بشئ أجعله .
لقد أنبأك نعيم بحبه وثورتى على هذا الحب ، وإصراره على أن يمضى فيما

بدأ ، وعطف أمه عليه ، ونطق بهذه الكلمة التي تفرق بين الإلفين . وكل هذا حق . ولكن الشيء الذي لم ينبئك به نعيم لأنه لم يكن يعلمه ، ولعله لا يعلمه إلى الآن ، هو أن الستار قد أسدل على بعض هذه المأساة ؛ فقد اختطف الموت من نعيم هواه . ثم أطرق حيناً وأقبل على قدحه ، فحسا منه حسوة وردة إلى مكانه في هدوء ، والشاعر واجم لا يدرى كيف يقول ، كأنما سقطت عليه الصاعقة . قال رءوف : نعم ! ماتت خديجة ، قتلها أخوها انتقاماً لشرفه فيما يظهر ، كأن لأمثال هؤلاء الناس شرفاً تراق في سبيله الدماء ، ويحتمل في سبيله العقاب والعذاب . لقد تغيرت الدنيا وفسد الناس ، وهبت على هؤلاء البائسين من أهل القرية وأمثالهم ريح لا أدرى من أين جاءتهم ، ولكنها حملت إليهم شراً عظيماً : علمتهم أن لهم شرفاً ، وأنهم يستطيعون أن يغضبوا لهذا الشرف ، وأن يسفكوا في سبيله الدم ، ويتعرضوا في سبيله للموت . ومن يدرى ! لعلها علمتهم ، أو لعلها أن تعلمهم أشياء أخرى ، ليست أشد من هذا نكراً . ولن أدهش إذا أنبت غداً ، أو بعد غد بأن هؤلاء الناس يضيقون بخضوعهم لنا ، وتسلطنا عليهم ، ويرون أن لهم في أنفسهم حقواً يدافعون عنها ، ويتكلفون في الدفاع عنها ما لم يتعودوا أن يتكلفوا ، وأن لهم فيما تخرج الأرض من الثمرات حقواً أكثر مما نعطيهم ، وأن لهم في الحياة مطامع وآمالاً لم تكن تخطر لهم من قبل . كل هذا ممكن ، وكل هذا خطير سيئ العاقبة . لقد كنا نرى هؤلاء الناس يسعدون السعادة كلها حين تهبط إليهم أبصارنا وحين نختصمهم بشيء

من العطف ، أو نلتقى إليهم شيئاً من التحية . لقد كان أعظم ما يطمحون إليه أن يرقوا إلى هذا القصر خداماً لأهله ، فإذا رفقوا إليه وظفروا بالخدمة فيه ، فأعظمهم حظاً من السعادة ، أقربهم مكاناً من السادة . فأين نحن من هذا الآن ! أترى إلى ابنة الإسكاف يؤثرها ابن سيدها بعطفه ويختصها بحبه ، ويمنحها مكاناً من قلبه ، فتنعم وتسعد ، وترى في هذا الإيثار حلماً لم يكن يتاح لأمثالها ولكن أخاها ينكر ، ثم يغضب ، ثم يثور فيقتل أخته . . . ولو قد استطاع لقتل معها شخصاً آخر .

وهنا برقت عيناه بريقاً مخيفاً ، وجرت في جسمه كله رعدة خفيفة ، لم يلبث أن ردها إلى الهدوء ، ثم أقبل على قدحه فألقى ما فيه في جوفه إلقاء . ثم نظر إلى الشاعر نظرة حادة وهو يقول : إنك لقليل النشاط إلى الشراب ، أفرغ قدحك كما أفرغت قدحي . ولم يحب الشاعر كأنه لم يسمع منه . قال رءوف وهو يضرب بيده على المائدة : أسمع لي ! أفرغ قدحك كما أفرغت قدحي أو قم عني ؛ فلست في حاجة إلى الجلساء الفاترين . وكان الشاعر يعرف صديقه حق المعرفة ، ويعلم أنه عنيف إذا غضب ، منكر السيرة إذا عربد على نديمه . فلم يكذب يسمع طرق المائدة حتى هب من وجومه مذعوراً . ولم يكذب يسمع نذير صاحبه حتى أسرع إلى القدح فصبه في قمه صباً . قال رءوف وقد نهض متضاحكاً : أما الآن فنعم . ثم أقبل على زجاجاته فصب ومزج ، وعاد إلى مجلسه هادئاً مطمئناً ينظر إلى قدحه متهاكاً عليه

قال الشاعر : لقد أنبأني نعيم أنه أرسل فتاته أمس إلى العاصمة ،
 ليلحق بها اليوم . فكيف . . . فقاطعه رءوف قائلاً : كيف قتلها أخوها ،
 أو أين قتلها ؟ أدركها في العاصمة ، وقتلها بملأ من الناس ، وأسلم نفسه
 للشرطة ، وأكبر الظن أنه كان يرقب أخته ، وأنه كان يعلم من أمرها كل
 شيء ، وأنه كان يدبر هذا الشر تدبيراً . والمهم أنه فعل فعلته ، وأنه بهذه
 الفعلة قد رد عنا شراً عظيماً ، ونهبنا لخطر عظيم . أراحنا من هذا الزواج
 المنكر ، وقطع على نعيم طريق التمرد والعصيان ، ونهبنا إلى أن في أمثاله من
 أهل القرية نزوعاً إلى شيء جديد ، فيجب أن نسير معهم سيرة جديدة ،
 وأن نلائم بين طموحهم هذا الطارئ وسياستنا لأموالهم . ولكن هذا حديث
 لم يحن حينه بعد ؛ فقد نستطيع أن نفكر ونروي متى أتيج لنا التفكير
 والتروية ؛ فأما الآن فقد يظهر أن لدينا ما يشغلنا من الأمر . ثم رفع القدح
 إلى فمه فكاد يأتي على نصف ما فيه . ثم أشار إلى الشاعر أن اشرب .
 قال الشاعر : إن لم تكن في حاجة إلى عقلك ، فقد تكون في حاجة إلى
 بعض عقلى ؛ فأمهلى ولا تشتط على . قال رءوف : أما أنا فشديد الحاجة
 إلى عقلى كله ، وإنك لتعلم أن الخمر أعجز من أن تذهب به . وأما أنت
 فلست في حاجة إلى عقلك ؛ لأننى لا أريد منك روية ولا تفكيراً ولا
 مشورة ، وإنما أريد منك طاعة وتنفيذاً للأمر وتحقيقاً لما أريد .

قال الشاعر : وعندك إذن أمر تريد أن تصدره إلى ؟ وما عسى أن
 يكون هذا الأمر ؟ قال رءوف : أتعرف لماذا حجبك آناً ؟ قال الشاعر :

لأنك كنت مشغولاً ببعض الضيف . قال رءوف : ألم تر هذا الضيف ؟
ألا تعرف من هو ؟ قال الشاعر : لقد كنت مشغولاً عنك وعنه بالنظر في
ذلك الكتاب . قال رءوف : فإنه حاكم الإقليم ، قد أقبل يزورنى ، ويسألنى
فى بعض حديثه عما سمع من أن نعيماً معترماً أن يسافر إلى إيطاليا وغيرها من
بلاد أوربا ، ليقضى عاماً أو أكثر من عام ! قال الشاعر : فإنى لم أسمع
قط بشيء من حديث هذه الرحلة . قال رءوف : لم تسمع أنت ، ولكن
حاكم الإقليم سمع ، وأقبل ينبئنى بما سمع . ويجب أن يتحقق ما سمع ، وأن
يرحل نعيم إلى حيث يريد من بلاد الله ، فيغيب عن هذه الأرض عاماً
أو أكثر من عام . فى هذه الرحلة تهدأ نفسه ، ويستقر قلبه بين جنبيه ،
ويسترد شيئاً من صواب ، وينتفع بما تفرضه الغربة على المغترين من التجارب .
أعدده إذن لهذه الرحلة ، ويسر له أمرها ، واصحبه فيها إن شئت أو شاء ؛
ذلك أجدر أن يريح الأسرة من بعض اللغط ، وأن يرد عنها بعض الشر ،
وأن يصلح بعض ما فى النفوس . ثم رفع القدح وأتى على ما فيه ، وأشار إلى
الشاعر فلم يجد منصرفاً عن الطاعة ، فأفرغ قدحه . وهم رءوف أن يصب ،
ولكن الشاعر استعفاه قائلاً : لم أحتج قط إلى عقلى كما أحتاج إليه الآن .
وإذا لم يكن للخمر سلطان عليك ، فإن سلطانها على عظيم . ثم نهض
متثاقلاً . قال رءوف : إلى أين ؟ قال الشاعر : إلى حيث ألقى نعيماً ، ثم
إلى حيث أصلح من أمرى ، ثم إلى حيث أنفذ ما تريد . قال رءوف : إن
نعيماً مسافراً إلى العاصمة اليوم ؛ فاصحبه فى سفره ، وتحدث إليه فى أثناء

الطريق . وما زال عندك فضل من وقت فأقم ؛ فما أريد أن أجلس وحدي إلى مائدة الغداء . ثم ضرب إحدى يديه بالأخرى ، فأقبل الخادم ، فأشار إليه أن يرفع أداة الشراب ، وقال له وهو ينصرف : أرسل إلى خليل .

وخليل هذا كاتب من كتاب القصر ، أقبل بعد قليل ، فلم يكذب ينحنى ويلقى التحية حتى ابتدعه رءوف قائلاً : ألم أسمع أن شراً عظيماً قد نزل ببعض أهل القرية ؟ قال خليل في صوت خافت متهدج : هو محمود الإسكاف أصيب في ابنه جميعاً ، قتل ابنه أحمد أخته خديجة ، وأسلم نفسه إلى الشرطة . قال رءوف : اذهب فواسه ، ويسر له العسير من أمره ، وأعنه على الرحيل عن القرية إلى حيث يشاء إن أظهر رغبة في الرحيل . قال خليل : الرحيل ! وإلى أين يمكن أن يرتحل ؟ قال رءوف في صوت كاد يحدث ولكنه رده إلى الهدوء : اذهب فأنفذ ما أمرتك به . فلم يستطع خليل إلا أن ينحنى ، ويحيى ، وينصرف . ولم يكذب يغلق الباب من دونه حتى قال رءوف : بعداً لهؤلاء الموظفين ! ما أعظم حظهم من الغباء !

قال الشاعر وهو يشعل سيجارة : أما أنا فإن لى من الغباء حظاً ، ولكنه ليس عظيماً فيما أظن . قال رءوف : وما ذاك ؟ قال الشاعر : إن لم أكن كهؤلاء الموظفين فقد ينحى إلى أنك تريد أن تحدث من حولك فراغاً ، وأن تعرض أمامك لوحة بيضاء كما يقال . فلم يجب رءوف ، وإنما استلقى في أعماق كرسیه ، وأغرق في صمت طويل ، ثم قال في صوت يشبه صوت النائم : لا أريد إلا أن أستريح . قال الشاعر : وتريد أن يستصحب

نعم أمه في سفره البعيد ؟ فأشار رءوف بيده إشارة المتعب المكدود ، وقال :
هيهات ! ذاك شيء لا سبيل إليه . ستبقى حيث هي ؛ فإنما هو لسان هفا
فسبق بكلمة لا تقدم ولا تؤخر . وما أكثر ما يهفو الناس ثم يصلحون
هفواتهم !

ولبث الرجلان في مكانهما ثابتين مطرقين لا يديران بينهما حديثاً ،
ولا ينظر أحدهما إلى صاحبه . ولو قد رآهما راء لقدر أن قد استحالا تماثلين
جامدين . ثم أزعجهما عن سكونهما هذه طرق الباب ، ثم ظهور الخادم
يدعوها إلى المائدة .

وما أظنك تريدني على أن أصحبهما إلى المائدة ، ولا على أن أرافقهما
بعد غدائهما بعد لأشهد ما يجري حولهما وحول الأسرة كلها من الخطوب .
فأنت تستطيع أن تقوم مقامى في ذلك ، وأن تتصور ما يحدث لهؤلاء
الناس على اختلاف أشخاصهم وأمكنهم من الأحداث كما تشاء ؛
فليس يعنينى الآن من أمرهم إلا أن الفتى قد ارتحل إلى أوربا ، وأن أمه قد
استقرت في مكانها من القصر ، وأن الشاعر قد عاد بعد رحلة قصيرة إلى
العاصمة ، فاستقر في جناحه المقسوم له واستأنف حياته كعهده قبل أن
تحدث هذه الأحداث ، يلقي رءوفاً حين يرتفع الضحى فيتنزه معه في
الحديقة ، أو يجلس معه على ضفة النهر ، أو يخلو معه في مكتبه ، يتحدث
إليه ويسمع منه ، وينشده من شعره ، ويقرأ له ما شاء الله أن يقرأ في هذا
الكتاب أو ذاك . وقد يلقاه إذا أقبل المساء فيستأنفان حياة كحياتهما في

أول النهار . والأيام تمضي مسرعة أو مبطئة ، وأكبر الظن أنها تمضي مسرعة بالقياس إلينا نحن لأن أيام القصص مسرعة دائماً ، كما كان يقول لنا الذين كانوا يقصون علينا الأحاديث في أثناء الصبا ، وتمضي مبطئة أشد البطء بالقياس إلى الذين يحيونها بالفعل ، إذا أملت بهم النوازل أو ألح عليهم الشقاء ، وتكرر مر السحاب بل أسرع من مر السحاب ، إن أتيت لهم حياة ناعمة راضية . وقد مضت الأيام على هؤلاء الناس مبطئة ومسرعة ، ولكنها مضت على كل حال ، لأن من طبيعة الزمن أن يمضي دائماً ، وهو لا يعرف الوقوف كما أنه لا يعرف الإسراع ولا الإبطاء ، وإنما هو يمضي على نسق واحد نراه نحن سريعاً حيناً وبطيئاً حيناً آخر .

وفي ذات ليلة جلس الصديقان في جوسقهما ذاك على شاطئ النهر يتحدثان في هدوء ودعة ، وقد سكن من حولهما كل شيء إلا هذا النهر الذي يجري في سر ، وتصطفق أمواجه في خفة وعذوبة ، وإلا هذه الغصون التي يداعبها النسيم ، فيسمع لأوراقها هفيف وحفيف ، وإلا هذه الضفادع التي تسكن حيناً ، ثم تنق كأنها تنتظر من الليل شيئاً ، فإذا أبطأ عليها أو التوى بما تنتظر منه جأرت بالسؤال والإلحاح ، ثم ثابت إلى الدعة والسكون ، ثم استأنفت دعاءها ونداءها وإلحاحها .

ولست أدري فم كان الصديقان يتحدثان ، ولكني أعلم أن رءوفاً قطع الحديث فجأة ومس كتف الشاعر في رفق ، ثم قال له : انظر إلى ما وراء النهر أترى شيئاً ؟ فمد الشاعر طرفه ثم رده ، ثم قال : تريد هذه النار التي

تتألق على هذه القمة ؟ قال رءوف : نعم ، متى عهدك بها . قال الشاعر :
 منذ أشهر . قال رءوف : ولم تكن تراها قبل ذلك ؟ قال الشاعر ؛ لا أعلم
 أنى رأيتهـا قبل أن تلم بنا تلك الأحداث . وهنا أطرق رءوف إطراقة طويلة .
 ثم قال : أما أنا فأعرف متى رأيتهـا لأول مرة . أتذكر تلك الليلة التى أنفقتها
 فى مكتبي ساهراً أنتظر الصباح ! فى هذه الليلة رأيت هذه النار تتألق
 من وراء النهر . ولست أدرى لماذا وصلت نفسى الحائرة بين ظهور هذا
 اللهب المضطرب ، على هذه القمة الساكنة ، وبين مصرع تلك الفتاة
 التى أغواها نعيم ، وقتلها أخوها فى العاصمة على ملأ من الناس . لقد ألقى
 فى روعى ليلتئذ أن هذه الفتاة قد عبرت النهر لتستقر فى حيث يستقر الذين
 يعبرونه دائماً ، وأن بين هذه الفتاة فى دارها النائية وبين دارنا هذه أسبابا
 لم تنقطع وأوطارا لم تنقض ، فهى تشير بهذا اللهب ، الذى يخفق دائماً
 ولكننا لا نراه إلا حين يجن الليل ، إلى ما بينها وبيننا من أسباب وأوطار .
 قال الشاعر وهو يرفع القدح إلى فمه : تفسير لا بأس به . إنك لتعلم
 أن ما وراء النهر أشد غموضاً من أن تنفذ إليه أفهامنا . وطالما سألت النهر
 عما وراءه فلم ينبئنى بشيء . قال رءوف : أما أنا فما أشك فى صدق
 ما أحدثك به ، وإلا فما بال هذا اللهب لم يخفق ، وما بال أعيننا . لم تره
 إلا منذ صرعت تلك الفتاة ! ولكن فى الأمر ما هو أشد من هذا غرابة
 وأعظم خطراً . أتعلم أنى أجد فى خفق هذا اللهب شيئاً يشبه أن يكون لى ،
 وأن نفسى تنازعنى إلى أن أعبر النهر ؟ قال الشاعر : حسبك ! فإنى أخشى

على عقلك الاختلاط . ولو علمت أنك تسمع لى إن أشرتُ عليك ،
لقلت إن حاجتك إلى الرحلة والاعتراب ليست أقل من حاجة نعيم .
قال رءوف فى صوت يشبه أن يكون همساً ، وقد مال إلى أذن صاحبه كأنما
يريد أن يسر إليه : فإنك لا تعرف من القصة كل شيء . قال الشاعر :
وفى القصة إذن شيء غير ما علمت ؟ قال رءوف : نعم ، فى القصة أن هذه
الفتاة كانت قد وقعت من نفسى موقعاً غريباً ، قبل أن يفتن بها نعيم .
قال الشاعر فى صوت يريد أن يتفجّر غيظاً ولكن الشاعر يرده إلى
الاعتدال والقصد ومن أجل هذا نفيت ابنك من الأرض ؟ قال رءوف :
نعم وأخشى أن أكون نفيته من قلبي !

اقترق الصديقان بعد ساعة تسلط عليهما صمت عميق ، ولكن واحداً منهما لم ينم من ليلته تلك : فأما الشاعر فلم يكد يبلغ حجرة مكتبه حتى أقبل على دفتره ذاك الذى كان يسجل فيه يومياته فتحدث إليه حديثاً طويلاً ، وأما رءوف فلم يكد يبلغ مكتبه حتى أنفق فيه ليلة مجنونة ، يرقب من نافذته ذلك اللهب المضطرب ثم ينصرف عنها حين يعيبه الوقوف ، فيجلس إلى شرابه جلسة تقصر أو تطول ، ولكنها تُسكت عنه ذلك اللهب المضطرب في جوفه لحظة ؛ وهو كذلك مضطرب بين شرابه يؤجج في جوفه ورأسه ناراً ، وبين نافذته التى تريه ، من وراء النهر ، على تلك القمة الشاهقة في السماء ، ناراً أخرى لا يريد لها المضطرب أن يخبر . . .

وكان مما كتب الشاعر في دفتر يومياته ، الذى أنفق معه أكثر ليلته ، هذا الحديث الذى أداره بينه وبين نفسه ؛ بدأ ، بهذا السؤال : أكنت مخطئاً أم مصيباً حين كذبتُ آنفاً على صديقى هذا الشيخ الشاب ؟ فإنى لم أر هذه النار التى رآها على قمة الجبل من وراء النهر ! وما أعلم أنى رأيت قط من وراء النهر لهباً ساطعاً أو غير ساطع ! لم أره اليوم ، ولم أره أمس ، ولم أره منذ شهور حين أَلَمْتُ بالقصر هذه الأحداث كما زعمت ! وإنما هو

نوع من المجارة لهذا الرجل الذى لا يحتمل خلافاً أو جدالاً فى شىء واضح أو غامض ، والذى تبينَ اليوم ، فى غير شك ، أن قد ألمَّ به طائف من جنون ! فقد صدق الخدم إذا فيما حدثوني به من أن سيدهم رأى هذه النار منذ حين ، وأرادهم على أن يروها كما رآها ، فلما زعم له بعضهم أنه لا يرى شيئاً ، تلقى منه لكمة أدمت خده ، وعلمته أن من الحق عليه أن يرى ما يرى سيده ، مخطئاً أو مصيباً ، وأن يعرف ما يعرف ، وينكر ما ينكر ، لا يعنيه أن يكون سيده مخطئاً أو مصيباً ، ولا يعنيه أن يكون سيده صادقاً أو كاذباً ، وإنما يعنيه أن يقول نعم حين يُراد على قولها ، وأن يقول لا حين يُراد على قول لا . وقد انتفع زملاؤه بهذه اللكمة ؛ أشفقوا أن يصبهم مثلها أو شرَّ منها ، فعرفوا ما عرف سيدهم ، وأنكروا ما أنكروا ! وقال قائلهم إنه يرى هذه النار فى كل يوم منذ يقبل الليل إلى أن يسفر الصبح ، وأن لا يراها حين تملأ الشمس الدنيا من حولها نوراً ، كأنها كائن حتى قد وكل بالسهرة إذا كان الليل ، وبالنوم إذا كان النهار !

واطمأن السيد إلى حديث ذلك الخادم ورأى أنه الحق كل الحق ! فصرف طرفه عما وراء النهر ما أضاعت الشمس ، ووكل طرفه بما وراء النهر ما أظلم الليل !

كذلك كان أمره مع خدمه وموظفى قصره ، ولكنى أنا لست خادماً له ولا موظفاً فى قصره ، ولست أخشى منه لطماً أو لكماً ، فقيم كانت موافقتى

له وإقبالى على ما أقبلت عليه من الكذب حين زعمتُ له أنى أرى ما كان يرى من هذه النار ؟

أكنت مشفقاً عليه إن كذبتُ حسّه أن يأخذه الغضب ، وأن يدفعه إلى جنون عنيف مكان هذا الجنون الهادئ الذى ألمّ به وأصبح له عشيراً ؟ أم كنت مشفقاً على نفسى من عواقب هذا الغضب ونتائج هذا الجنون ؟ ولم أكذب نفسى الآن بعد أن كذبت هذا الشيخ الشاب منذ حين ؟ لم لا أقول إني جاريته ، كما جازاه خدمه وموظفو قصره ، رفقا به ورفقا بنفسى أيضاً : فلستُ أكره شيئاً كما أكره غضبه ، ولست أحب شيئاً كما أحب رضاه ! فهو شيطان مرید مفسد لكل شيء من حوله إذا غضب ، وهو روح حلو مصلح لكل شيء من حوله إذا رضى . . .

وكف الشاعر عن التحدث إلى دفتره حيناً ، ولكنه لم يتحول عنه ولم يلق القلم من يده ، وإنما لبث مكانه واجماً كاسف البال مظلم النفس والوجه - ، ثم ارتسمت على ثغره ابتسامة مرة ، وظهر على وجهه شيء من التردد اضطرب له القلم فى يده بعض الاضطراب ، ثم تاب إليه هدوؤه ، ولكنه كان هدوءاً مرّاً ، إن صوّر شيئاً فإنما يصوّر حسراتٍ كانت تمزق قلبه تمزيقاً . . .

رقم الإيداع	١٩٨٦ / ٤٩٠٧
الترقيم الدولي	١٧٧-٠٢-١٧٧٥-١
ISBN	

١ / ٨٦ / ١٧٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)